مفاهيم إيمانية
١

علـــــم الله
و
حريـة الإنسـان

سـامـر إسـلامبـولي

علـــم الله

و

حرية الإنسان

* علم الله وحرية الإنسان
* سامر إسلامبولي
* الطبعة الأولى - ١١ / ١٩٩٤

* تنفيذ:
الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - هاتف : ٣٣٢٠٢٩٩ - ص.ب ٩٥٠٣ - تلكس: ٤١٢٤١٦

تصميم الغلاف: زكريا شريف

إهـــداء

إلى الإنسـان صاحب التفكـير الحـر المتفتـح الـذي يقبل الحوار، ويسمح بوجود الرأي المخالف له. ويقبل الحقيقة ولو كانت على خلاف مع تصوراته القديمة.

المقـدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد.

لله در القائل:

قل لمن لا يـرى المعـاصـر شيئـاً	ويـرى للأوائـل الـتـقـديـما
إن ذاك الـقـديـم كان حديثـاً	وسـيبقـى هذا الحـديث قديـماً

إن الأمة الإسلامية تمر في أزمة ثقافية، وهي راغبة في العودة إلى الذات رغم الصراع التقليدي بين تيار أهل الأثر وتيار أهل الرأي، وكل من التيارين يحاول بلورة أصـولـه، وطرح تصوره عن الإسلام محاولاً قيادة الأمة وأخذ زمام الأمور في ذلك.

فالخطـاب الإسـلامي ذو اتجـاهـين: الأول أثـري، واصطلح عليـه بالأصـوليـة، والآخـر: عقلي واصطلح عليه بالحداثة. فالأمة الإسلامية أفراداً وجمـاعـاتٍ تريد العودةَ إلى الذات ونقدها، ومن ثم بناؤ ها من جديد، ولكن هذه العودة لابد لها من أسس ومنهجية أيضاً تخضع لعملية النقد الذاتي.

فما نراه اليـوم من تضـارب في مناهج التحقيق بالنسبة لروايات الحديث

صورة من صور النقد الذاتي، ومحاولة في نهضة الأمة والعودة إلى الذات من خلال تأصيل الأسس وبلورة الأفكار.

وليضع القارىء يده على مانقول فلينظر إلى تخريج الأحاديث للشيخ الألباني، وتخريج الأحاديث للأخ الأستاذ حسان عبد المنان من خلال كتاباتهما، رغم أنهما من تيار واحد؛ أهل الأثر، إلا أنه تناقضت ثوابتهما.

أما التيار الثاني: الحداثة، فهو ينظر إلى الغايات، والمقاصد، والمصالح، ويميز بين الوسيلة والغاية، فهم لايأخذون بظاهر النصوص ولا بعينها، وإنما يؤولون النص بما يتفق مع الغاية والمعاصرة. فمنهم المنفتح بحيث لايستقر بفكره شيء من الثوابت لظنه أنها نسبية، ومنهم المعتدل ضمن الأصول والثوابت من خلال القرآن الكريم والسنة، ومنهج معاصر في فهمهما من خلال اللغة العربية والواقع.

فالحضارة الإنسانية بحاجة ماسة إلى وعي يستوعب كلاً من التيارين من خلال منهج يكون القرآن الكريم هو الأساس والأصل والمنظار، وإعادة فهم السنة من خلال كتاب الله مفهوماً، ومنهجاً. وبذلك العمل نكون قد خرجنا من الفتنة حسب قول رسول الله ﷺ عندما سئل عن كيفية الخروج من الفتنة فقال: [عليكم بكتاب الله فهو حبل الله المتين..].

أخي القارىء، إن الفكر ليس له حدود فلا تغتر بقول القائل: «ماترك الأول للآخر شيئاً» فإنه ليس بمقالة أضر على الاجتهاد منها، فضلاً عن مناقضتها لنصوص الوحي في الأمر بالتدبر والتعقل والتفكر، وقد قال ﷺ: [أمتي أمة مباركة..] من حيث النماء، والزيادة، والكثرة كماً وكيفاً يوافق وينسجم مع النماء والتقدم لاحتياجات الناس، والمستجدات من الأحداث، والتقدم للعلوم الكونية.

إن مفهوم علم الله لم يتناوله علماء الإسلام باستفاضة على مر التاريخ الإسلامي، وكتب العقيدة تشهد على ذلك، حتى أن تيار أهل الأثر ـ وهم

أولى الناس في دلك ـ لايأتون بدليل من الوحي على مسألة علم الله ، بل تجد مقـررات عقليـة مسبقة ، وعلى ضوئها يعملوا على تأويل كل نص من القرآن الكـريم ، ظاهـره يشعر خلاف ماقرروه سابقاً ، ليس التقرير الموضوعي المنبثق من دراسة علمية ، وإنما التقرير الذي انبثق من التخيل والظن والتخمين . أما الأحاديث فكثير منها مشكل في متنه ، ناهيك عن ظنية ثبوته ، وللعلماء موقف منهـا فهم لايحـدثـون النـاس بها خشيـة الفتنـة ، ومن باب (حـدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله) .

فالخروج من الفتنة هذه هو اعتماد المنهج الرباني ، آيات الآفاق والأنفس التي ستشهـد على صحـة وصـدق أقـوالنـا وأفكـارنا ، ولايضر الخبر الصحيح القطعي عمـل أكثـر الأمـة بخـلافـه ، لأن الحجـة بالنص القطعي وليس بالأكثـريـة ، أو من عمـل به ، أو تركـه . وعـدم معـرفة خلاف في المسألة سابقاً لايعطيها المصداقية لاحقاً ، فضلاً عن أن الإجماع ليس مصدراً يقرر صحة أو خطأ فكرة ، وإنما هو قاعدة سياسية ، لايحل الحرام ، ولايحرم الحلال ، فهو من باب المصلحـة الممنـوعـة ، والمـرغوبة المقيدة في الزمان والمكان ، لأن أمر الإمام يرفع الخلاف ، كما هو مقرر في السياسة الشرعية .

وروايات الحديث لم تخرج عن كونها ظنية الدلالة ، بالإضافة إلى ظنية ثبوتها .

والقــرآن الكـريم هو الأصـل والإطـار لفهـم أي مسألـة شرعيـة تتعلق بالإيمان ، أو الأحكام ، فلذا يجب الانطلاق منه مع استصحابه لتوجيه وضبط الدراسة .

إن مسألة علم الله مسألة خطيرة تتعلق بها مسائل كثيرة حيوية في حياة الإنسـان ، نحـو مسألـة الحرية والاختيار ، والقضاء والقدر ، والرزق والعمل ، والحيـاة والمـوت ، والصحة والعافية ، والسعادة والشقاء . . . إلخ . فهي مفهوم إيـماني ينبثق منـه سلوك على الصعيـد الفردي ، والاجتماعي ، ويصيغ مفاهيم

أخـرى عن الحيـاة والإنسـان والكـون . لذا يدعـو الأمر ـ كما هو حال كثير من مسـائـل الفقـه الإسـلامي ، إلى إعادة النظر في مفهوم السنة أولاً ، وفي مفهوم منهـج فهـم السنـة ثانيـاً ، ضمن إطـار كتـاب الله ، فهو الحاكم والقاضي على روايات الحديث . وحتى يتجلى المنهج في زماننا يكون هذا البحث هو البداية والنواة لمن هم أعلم وأقدر وأطول باعاً في تطويره وبلورته واخراجه للناس . قال تعالى :

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1] .

فهـذه الآيـة المحكمـة يجب أن تكـون أصـلاً في منهج فهم الإسلام في زمـاننـا هذا ، حتى نستطيـع أن نستشهـد على احقـاق الحق ، ونكون شهداء على النـاس ، مسخـرين العلوم الكـونيـة والإنسـانيـة ، وتوظيفهما في تشكيل العقلية الإسلامية ، لنضمن ماقصده الإسلام من الهدى والبيان .

---

١ ـ فصلت ـ ٥٣

المدخل إلى البحث

يروى أن أحد أباطرة الصين لما ولي الحكم استشار فيلسوف زمانه فيما يجب أن يعمل، فقال الفيلسوف: (أول عمل ينبغي أن تقوم به هو تصحيح الأسماء). أي تحديد محتوى الأسماء حتى لاتخلو من معانيها، ولاتفقد الكلمات سلطانها ـ أي مضمونها السنني ـ ولا تتحول الحياة إلى وثنية ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤ كم ماأنزل الله بها من سلطان﴾[1].

وكلمة العقل من هذه الكلمات، أو الأسماء التي تحتاج إلى تصحيح وتحديد لأنها تستخدم كثيراً في بحوث الفكر والعلم، ولأن للإتجاه العقلاني مكانه في العالم المعاصر[2].

وبما أن كل فعل له ردة فعل؛ فقد صدرت كتبٌ كثيرةٌ تحارب الاتجاهَ العقلي، والقاسم المشترك بينها: هو عدم تحديد وضبط كلمة العقل، والمراد منها، فكان ردهم متصفاً بالغوغائية والعاطفية التي لامبر ر لها في البحث الموضوعي، ناهيك عن الشتام والاتهام بالضلال والانحراف والعمالة والزندقة لكل من تصدر الإتجاه العقلي سابقاً، ولاحقاً، وسأذكر على ذلك مثلاً ليس على سبيل الحصر، وإنما كنموذج فقط.

---

١ ـ النجم ٢٣.

٢ ـ نقلاً عن كتاب ـ اقرأ وربك الأكرم ـ للأستاذ جودت سعيد.

لقد صدر كتاب حديثاً ـ لعله من آخر ماصدر في هذا الشأن ـ تحت عنوان [العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون] يقول فيه:

[هؤلاء العقلانيون سلسلة ظالم أهلها ابتدأت من المعتزلة الضلال الأول، ثم لم يخب أوارها إلى هذه الساعة فتلقفها المبتدعة والمنحرفون، وقفز إليها المتحللون والمتهوكون، كل ينادي بها ويدعون إليها، لكن بألوان متغيرة، وأثواب مزركشة، وألفاظ منمقة . . .][3].

وقال في موضع آخر: [إن كلام هؤلاء جهل، وأن مآله إلى الزندقة][4].

وقال أيضاً: [إن العقل كثيراً ماأقر الخرافة وأضفى المصداقية على كثير من الأباطيل التي يمجها الذوق السليم، والفطرة القويمة . .][5].

فهل العقل يقر بالخرافة ويعطي صفة المصداقية لأمور باطلة؟ فهذا عجيب وغريب، كيف خاطب الله أناساً هذه صفتهم، وطلب منهم الإيمان عن طريق التفكر والتدبر والتعقل؟ سنترك الجواب لعقل القارىء!!.

وقال في موضع آخر: [أن العقل يبطل الاعتماد على العقل][6]. فهذه المقولة أغرب وأعجب من سابقتها، فالمتأمل فيها يجد أنها تنقض بعضها بعضاً، أولها ينقض آخرها، لأن النتيجة التي وصل إليها بعدم الاعتماد على العقل هي نتيجة عقلية، وكونها كذلك فلا يعتمد عليها بناء على قوله، فتأمل في ذلك، وهذا غيض من فيض قد امتلأ به كتابه!!.

والذي يهمنا من الكتاب قوله في المقدمة: [إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان . . . هذا حق . . ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات، متأثراً بشتى المؤثرات . . . ليس هناك مايسمى (العقل البشري) كمدلول

---

٣ ـ العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون ص ٨

٤ ـ ٦ ـ نفس المصدر ص ٤٨ ـ ٤٩ .

مطلق!! يكـون أسـاسـاً يبنى عليـه غيره، ويكون حكماً بين أمور مختلفة لا يرد حكمـه، إنما هناك عقلي.. وعقلك... وعقل فلان.. وفلان.. وعلان..
وعقول هذه المجموعة من البشر في مكان ما في زمان ما..][7].

وقال في موضع آخر: [فعقل من نحكم؟ هل عقل الخواص أم عقل العوام؟

- وهل نحكم العقل السلفي أم العقل الصوفي؟
- وهل نحكم العقل الأصولي أم العقل الفلسفي؟][8].

وقـام بسـرد الآيات التي تناولت العقل، وأمرت بالتفكر والتدبر، ليوهم القارىء أنه رجل عقلاني، يحترم العقل، وبحثه قائم عليه، رغم أن الدارس لهذا النص الذي سقناه له يجد أنه متخبط فيه، لا يدري مايقرر وماينفي، فتراه يثبت شيئـاً في أول كلامـه وينقضه في آخره، فيعطي للعقل وزنه وقيمته، ومن ثم يسلبه ذلك بقوله: [عقلي وعقلك وعقل فلان... فمن نحكم؟].

والنتيجـة التي يريـد أن يقـرها هي أن العقل لا يحكم على شيء. وكل مافي الأمـر أنـه عليـه التنفيـذ فقـط، دون تفكـير أو إعـمال أي جهـد عقـلي، والتصديق بكل مايسمع لمجرد أن الراوي ثقة عدل ضابط.

ولو كان الخبر لا يعقل أولا يكون ذلك في الواقع.

ولقد جعل العقل أداة دون دراسة للموضوع، فوقع في التناقض عندما قال: [عقـلي وعقلك وعقـل فلان وعـلان]. فهـل الأداة التي خلقهـا، الله في الإنسـان مختلفـة من واحـد إلى آخر؟ أم هي فطرة الله التي فطر الناس عليها؟ والغريب بعد ذلك أنه يأتي بكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف العقل، ولكنه لا يعقل كلام ابن تيمية، وإنما يأتي به ليختبيء وراءه ويظن أن القارىء

٧- نفس المصدر ص ٤٨ - ٤٩.
٨- نفس المصدر ص ٤٨.

سوف يقف أمام قول ابن تيمية لاينقده، لأن ابن تيمية هو شيخ الإسلام وفوق النقد!.

فقد قال ابن تيميه: [إن العقل في لغة المسلمين عرض من الأعراض، قائم بغيره، وهو غريزة أو علم أو عمل بالعلم][9].

فالعقل عند ابن تيمية ليس جوهر قائم بنفسه، أي ليس هو أداة، وإنما هو علم أو عمل بالعلم، أي وظيفة يكتسبها الإنسان من خلال التعلم. فكيف يفهم هذا الكاتب كلام ابن تيمية ويستدل به، وهو ضد ماذهب إليه، والكتاب مليء بأمثال هذه الاستلالات التي في غير ماقصد بها أصحابها، وكل ذلك ليختبيء وراء الرجال، وليجعل القاريء يعيش في عالم الرجال لايجرؤ أن يخالفه، لأن مجرد المخالفة يعني أنك اتهمت هؤلاء العلماء بالخطأ، وإذا فعلت ذلك أثار عليك رأي السواد، وقال لك: من أنت أمام هؤلاء حتى تعطي لنفسك حق القول بالخطأ على قولهم. وهكذا يحيك شبكته حول عقل القاريء، ويمرر مايريد هو من أفكار تحت النصوص وأقوال الرجال، رغم أن النصوص عكس ماقرر هو، كما أن أقوال الرجال كذلك، فلذا: على القاريء أن ينتقل من عالم الرجال إلى عالم الأفكار، ويحاول أن يدرك العلاقة المنطقية بين الدليل والمدلول عليه، ولايقف عاجزاً مبهوراً لمجرد سرد النصوص القرآنية أو النبوية، وتحميلها ما لا تحتمل لامن قريب ولا من بعيد، فلذلك يجب عليه الإنتباه إلى هذا الفخ والمطب لاغتيال العقل.

وبعد هذا النقاش البسيط نقول: أن الصواب في هذه المسألة هو، أن الله خلق الناس على الفطرة كما أخبر بذلك: [فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله][10]. فهذا هو القاسم المشترك بين الناس جميعاً، مشاهد في

---

٩ - نفس المصدر ص ١٧ أو راجع مجموع الفتاوى لابن تيمية.

١٠ - الروم ٣٠.

الواقع، مفطورة عليه الناس ، إبتداء يلد معهم ألا وهو قانون التمييز الذي هو التمييز بين الأشياء المختلفة، والأشياء المتناقضة، والأشياء المتماثلة .

فلو عرضنا على إنسان ـ لايوجد عنده أي علم أبداً ـ شكلين : الأول رباعي ، والآخر دائري ، فإنه يستطيع التمييز بينهما، وأنهما مختلفين لا متماثلين أو متناقضين . بخلاف لو عرضنا عليه شكلين متماثلين فإنه يدرك أنهما متماثلان ، ولكن هذا الإدراك لايتجاوز التمييز بين الأشياء فقط ، ولا يستطيع أن يدرك لماذا يستعمل الشكل الدائري أو الرباعي . فهذا الاستعمال هو وظيفة الأشياء[11]، واكتشافها يسمى علماً. أما مجرد التمييز فلا يسمى علماً. فلذلك قال تعالى : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً﴾[12] أي لاتعلمون وظيفة أي شيء ، وتحصيل ذلك لابد له من الدراسة والاكتساب من خلال السير في الأرض ومعرفة كيف بدأ الخلق . فصفة التمييز واحدة عند الناس ، ومن يفقد التمييز يسقط عنه التكليف ، لأن التمييز هو بمثابة أساس ووعاء للعلوم كلها ، والناس تتفاوت بتحصيل العلوم : ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون﴾[13] .

فقول الكاتب : أن هناك عقل سلفي ، وآخر خلفي ، خطأ . لأن التمييز هو واحد عند الناس جميعاً ، فلا يوجد تمييز سلفي وآخر خلفي ، وإنما يوجد معلومات سلفية ، ومعلومات خلفية ، والإنسان يأخذ هويته حسب المعلومات التي يحملها، لأن السلوك ينبثق من المفاهيم[14] .

والأساس الذي ينبغي أن نرجع له ويكون حكماً فاصلاً بين الناس : هو العلم بكل أنواعه ، والعلم لايطلق إلا على الحقائق الثابتة ، وهذه الحقائق

---

١١ - راجع كتاب تكوين العقل العربي، د. الجابري.

١٢ - النحل - ٧٨.

١٣ - الزمر - ٩.

١٤ - راجع كتاب نظام الإسلام للنبهاني.

الثـابتـة سواء كانت حقـائق إيهانية نحو: حقيقة وجود الله ، وأنه الخالق المدبر، وحقيقـة أن القـرآن كتـاب الله ، وحقيقـة نبـوة محمد ﷺ ، أو حقائق كونية نحو العلوم الطبيعية من كيمياء، وفيزياء، أو حقائق منطقية نحو علم الرياضيات، أو حقـائق متعلقـة بالأنفس والمجتمعـات . وهـذه الحقائق لاتتعدد، وليس لها هوية أو وطن، فلا يوجد علم رياضي سلفي وآخر خلفي . فالعلم هو حقيقة ثابتـة عنـد كل الناس، وهو المرجع حين الاختلاف، وهو الحكم الفاصل أثناء النزاع، وهو المقصود بكلمة العقل حين الاستخدام . فعندما نقول: هذا الأمر عقلي، نقصد أنه علمي، وعندما نقول: أن هذا الأمر غير عقلي، نقصد به أنه غير علمي . فلذلـك لايـوجد عقلي وعقلك، وعقل فلان وعلتان، وإنها يوجد عالم وجاهل، وعلى الجاهل أن يسأل العالم ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾[١٥] . والسؤال يكون متضمناً السؤال عن الدليل وإدراك العلاقة المنطقية بين الدليل والمدلول عليه، فهذا يسمى علماً. أما إذا كان السؤال مجرد سؤال وسماع الجواب دون إدراك العلاقة المنطقية بين الدليل والمدلول عليه، فهذا لايسمى علماً، وإنها هو تقليد أعمى، مذموم عقلاً وشرعاً، قال تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[١٦] .

بعـد هذه اللمحـة السـريعة لمصطلح العقل نأتي لبيان كيفية استخدام القرآن لكلمة العقل .

قال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾[١٧] .

وقال: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾[١٨] .

---

١٥ - الأنبياء - ٧ .

١٦ - البقرة - ١١١ .

١٧ - الحج - ٤٦

١٨ - الملك - ١٠ .

وقال: ﴿ولقد درأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لايفقهون بها، ولهم أعين لايبصرون بها، ولهم آذان لايسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾[19].

لاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم ينفِ وجود الأداة التي هي القلب والعين والأذن، وإنما نفى وظائفهم التي هي الفقه والإبصار والسمع، وهذه الوظائف تحت متناول كل إنسان فله أن يفقه ويبصر ويسمع لما يريد. .

ولاحظ أن تعطيل هذه الوظائف هو هبوط في الإنسان إلى المستوى البهيمي، ويصبح وجوده وجوداً فيزيولوجياً فقط، يأكل ويشرب وينام، أي وجود استهلاكي فقط، وانتفى عنه صفة الإنتاج والإبداع وعمار الأرض والاستخلاف فيها،

قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[20].

وقال: ﴿وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾ ' .

لاحظ أن القرآن لم يستخدم العقل اسماً لأداة، وإنما استخدمه فعلاً يصدر من الإنسان الواعي. ولذلك لاتجد في القرآن كله كلمة العقل تأتي بسياق الاسم وإنما تأتي بسياق الفعل: [يعقلون ـ تعقلون]. مما يدل على أن العقل في القرآن هو عمل ووظيفة، وليس أداة مجردة موجودة بشكل لازم مع الإنسان خلقاً. بخلاف القلب فهو أداة لازمة مع الإنسان خلقاً، ووظائفه التي هي التفكر والتدبر والتفقه والتعقل والتعلم هي مهارات يختلف الناس بأدائها حسب تحصيلهم لهذه الوظائف.

يقول الأستاذ جودت سعيد في هذا الصدد : [إن العقل كالكتابة والقراءة أو كأي وظيفة أخرى يكتسبها الإنسان بالمهارة والتعلم، وحين نقول: [الكتابة] لايخطر في بالنا أنها آلة في الإنسان، بل ينصرف الفكر تماماً إلى أنها

١٩ ـ الأعراف ـ ١٧٩.

٢٠ ـ الرعد ـ ٤.

وظيفة قد يحصلها الإنسان أو لا يحصلها. فلا نقول عن زيد من الناس: ليس عنده كتابة. بل نقول: إنه لايكتب].

وقال في موضع آخر: [فهم العقل على أنه وظيفة مثل الكتابة والسباحة وسائر المهارات الأخرى، يؤدي بنا إلى أن نرتب نظاماً لاكتساب هذه الوظائف بأقل الجهود والأزمنة، وعلى أحسن الدرجات][21].

فالعقل والتفكير والإدراك هي وظائف وليست أداة، وبما أنها وظائف فيجب معرفة كيف تتم عملية التفكير أو التعقل للشيء. فإذا تدبرنا في وظيفة التفكير كيف تتم مع الأخذ بعين الاعتبار أن الإنسان يأتي إلى الدنيا لايملك شيئاً من العلم[22]. قال تعالى: ﴿أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً﴾.

لاحظ أن الإنسان يتلقى كل علومه من خلال حواسه الخمسة. وأي إنسان يأتي إلى الدنيا فاقداً حواسه الخمسة، يبقى دون علمٍ ويعيش وينمو كالنباتات، وإذا فقد إحدى الحواس كحاسة البصر مثلاً ويلد أعمى، فإنه يفقد النافذة التي من خلالها يطل على عالم الألوان والأشكال، وبالتالي ففد قناة الاتصال بكل معرفة متعلقة بعالم الألوان والأشكال، ويستحيل عليه إدراكها أو التفكير بها. وماينطبق على حاسة البصر، ينطبق على باقي الحواس.

وهذه الحواس الخمسة، لابد لها من مركز يتم فيه جمع وترتيب وربط المعلومات التي تدخل من خلالها ألا وهو الدماغ. فإن سلامة الدماغ أمر لابد منه لعملية التفكير، لأن عطل الدماغ يؤدي إلى ضياع المعلومات وإهدارها، لأنه بمثابة المركز الذي يتلقى المعلومات، وعطله هو عطل لجهاز الاستقبال[23].

---

21 ـ كتاب ـ اقرأ وربك الأكرم ـ .

22 ـ راجع الكتاب والقرآن د. شحرور.

23 ـ راجع كتاب لتفكير النبهاني

ونـلاحظ أن الإنسان صاحب الدماغ السليم، والحواس السليمة، إذا قلنا له: قم بوظيفة التفكير. لأجاب فوراً: بأي شيء أفكر؟. مما يدل على أن عمليـة التفكـير لابـد لها من تعيين شيء موجود هو محل لوظيفة التفكير. لأنه يستحيـل التفكـير بلا شيء محدد أو موجـود. فلا تفكير إلا بواقع، وإذا انتفى الواقع انتفى التفكير: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾[٢٤].

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت..﴾[٢٥].

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾[٢٦].

ونـلاحـظ أيضـاً أن الإنســان إذا حددنـا له شيئـاً لايعـرفهُ، وطلبنا منه التفكـير فيـه، فإنـه يبقى عاجزاً، يقلب النظر فيه. لايصل إلى شيء، وذلك لعدم وجود معلومات عنده عن الشيء المقصود. كأن تطلب من إنسان أن يقرأ اللغة السريانية وهو جاهل لمدلولاتها، فلو بقي فترة من الزمن طالت أم قصرت يتمعن بأحرفها ويقلب النظر بكلماتها لايستفيد شيئاً أبداً، ويبقى على جهله، وتبقى عمليـة التفكـير معطلة، وما على الإنسان إلا أن يسارع في تعلم اللغة من أهلها، حتى يستطيع أن يفكر ويدرك مدلولاتها.

إذاً حتى تتم عمليـة التفكـير لابـد من معلومـات يحصلها الإنسان من خلال الواقع نفسه.

فالـواقـع هو مصدر للتفكير والتعليم، وكذلك هو بنفس الوقت موضع للتفكير، قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[٢٧].

---

٢٤ - الحشر - ٢١.

٢٥ - الغاشية - ١٧ - ١٨.

٢٦ - آل عمران - ١٩٠.

٢٧ - العنكبوت - ٢٠.

فالسير في الأرض هو لتحصيل المعرفة عن كيفية بدء الخلق، وكذلك هو بنفس الوقت محل للتفكير والتدبر.

وقد يقول قائل: أن هناك قسم من المعارف ليس الواقع هو مصدرها، كالأحكام الشرعية من العبادات والمعاملات وغير ذلك من المعارف. فنقول: أليس مصدر هذه العبادات هو الخالق المدبر؟ ووجود الخالق المدبر، أليس هو مدرك في الواقع؟. وبمعنى آخر: الإيمان بالله هو فكرة مجردة أم حقيقة واقعية؟! مما يدل على أن الواقع هو مصدر للعلم بشكل عام، وموضع للتفكير بشكل خاص.

فالتفكير هو نقل الإحساس بالواقع إلى الدماغ من خلال الحواس مع وجود معلومات سابقة أو لاحقة يتم إدراك الواقع بموجبها.

وإذا كان الشيء ليس له وجود موضوعي في الواقع، كالخرافات والأساطير والأشياء المستحيلة، فالتفكير بها لايسمى تفكيراً، وإنما هي تخيلات وأوهام. لأنه لاتفكير إلا بواقع يكون محلاً للتفكير.

وقد يقول قائل: من أين جاءت هذه الخيالات والأوهام؟. فهذه الأوهام أتت من جراء تركيب صور ذهنية من الواقع المدرك. نحو التخيل لإنسان له أجنحة، وجسم سبع، ورأس إنسان، فهذا الشكل لاواقع له، وإنما هو صورة ذهنية وهمية، وهذا يسوقنا إلى أن عملية التخيل أو التصور لاتكون إلا ضمن الواقع المحسوس، لأن هذه الصورة الوهمية المتخيلة لو أرجعنا كل جزء منها إلى مصدره في الواقع لم يبقَ معنا من الصورة شيء. فالأجنحة للطيور، والجسم للسبع، والرأس للإنسان. فعملية التخيل لابد لها من واقع محسوس، ولايستطيع الإنسان أن يتخيل إلا ضمن معلوماته عن الواقع.

فلو قلنا للإنسان القديم: أن الجماد يتكلم. لذهب بتصوره وتخيله لشكل الجماد أن له فم وأسنان ولسان وشفتين، أي أسقط الفكرة مباشرة على

الواقع المدرك بالنسبة له، فالكلام لايكون حسب علمه إلا من لسان وشفتين وأسنان. وهنا الغلط الفاحش الذي يقع فيه الإنسان، فهو يريد أن يفهم كل الوجود، ويفسره بناء على أرضيته المعرفية الضحلة، وبالتالي يخرج بصور مضحكة يفسر بها الواقع كمن قال: بدوران الشمس حول الأرض سابقاً، وبأن الأرض مبسطة غير كروية لاحقاً[٢٨].

فهذه المقولات وأمثالها هي أوهام وتخيلات لا أساس للصحة فيها أبداً، والخطأ نتج عن عدم الإحساس بالواقع أي عدم معرفة الواقع على ماهو عليه أدى إلى هذه الأوهام المضحكة لمن يعرف الحقيقة.

فهذه الأشياء لاتسمى تفكيراً، وإنما هي أوهام. وكل من ينطلق في دراسته دون الاعتماد والانطلاق من الواقع نفسه فدراسته لاتتجاوز الأوهام والخرافات، وبعيدة كل البعد عن البحث العلمي الموضوعي، ولو بلغت مجلدات كبيرة. وبالتالي لاتستحق القراءة أو الاقتناء، لأن قراءتها هي نوع من السفسطة وتضييع الوقت، والعيش في عالم الأحلام بغض النظر عن المؤلف وألقابه.

فالواقع هو أساس التفكير، ولاتفكير إلا بواقع. هكذا خلق الله الإنسان، وعندما خاطبه طالباً منه الإيمان، خاطبه من خلال الواقع ليوصله للتفكير والتدبر والعلم، قال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، لآيات لقوم يعقلون﴾[٢٩].

---

٢٨ ـ راجع رسالة ابن باز في انكار كروية الأرض.

٢٩ ـ البقرة ـ ١٦٤.

فهذه الأشياء المذكورة في الآية هي واقع محسوس للإنسان من خلال وقوع حواسه عليها، وما على الإنسان إلا أن يعمل عقله فيها ليصل إلى الحق.

وقال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾[٣٠].

لاحظ في الآية أن السير في الأرض هو طريق لمعرفة الواقع، وتحصيل العلم عنه حتى نعقله على ماهو عليه، دون أوهام أو خرافات كما قال تعالى ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[٣١]. فالبحث والعلم والتفكير لايكون إلا من خلال معرفة الواقع نفسه، وتتبع مراحل تطوره منذ نشأته الأولى.

إن التدبر في واقع التفكير عند الإنسان نلاحظ أنه يحكم أو يجزم على وجود الشيء من خلال ثلاث قنوات لا رابع لها هي:

١ - وقوع الحواس على الشيء مباشرة: نحو صفة الإحراق للنار، وطفو الأجسام على الماء ضمن قانون الطفو، وتبخر الماء إذا تعرض إلى الحرارة. . . الخ. كل ذلك إنما من طريق الإحساس في الواقع مباشرة، فأي إنسان يريد أن يثبت فكرته فما عليه إلا أن يسقطها على الواقع مباشرة، ويجعل الآخرين يحسونها في عالم الشهادة، والحكم في هذا القسم يكون للشيء وجوداً وماهية.

٢ - وقوع الحواس على أثر الشيء: نحو الكهرباء، والجاذبية، والقوى المغناطيسية، والكهرطيسية. . . إلخ فهذه الأشياء يجزم الإنسان بوجودها دون وقوع الحواس عليها مباشرة، وإنما وقع الحس على أثرها، والحكم في هذا القسم يكون للوجود دون الماهية.

---

٣٠ - الحج - ٤٦.

٣١ - العنكبوت - ٢٠.

٣ - وقوع الحواس على الخبر القطعي: [٣٢]

وذلك يكون على وجهين:

الأول: خبر الواحد المدعم بالدليل العقلي على صحة خبره نحو خبر الأنبياء عن ربهم.

الثاني: خبر الجماعة الذين رووه عن جماعة مثلهم يستحيل عقلاً تواطؤهم على الكذب، وهذا الخبر يسمى خبر متواتر نحو: نقل القرآن إلينا عبر الأجيال، وعدد فرائض الصلاة، وأخبار السيرة المتواترة من غزوات وغيرها.

فهذا القسم يكون الجزم بصحة الخبر فيه بشكل قطعي، أما مضمونه فهو على وجهين:

الأول: إن كان يخضع مدلول النص للإحساس؛ تم التفكير فيه وتصوره عن طريق قياس الغائب على الشاهد.

الثاني: إن كان لايخضع مدلول النص للإحساس؛ فالمطلوب هو الإيمان التسليمي به، دون الخوض في مضمونه لعدم إمكانية خضوعه للحواس، ويكون الإيمان به إيمان وجود، وليس إيمان كيفي نحو اليوم الآخر ومايجري فيه، والجنة والنار والملائكة...

وبما أن الله خلق الإنسان لايفكر دون واقع محسوس فقد ربط خطابه القرآني في الواقع، وبالتالي يستحيل التفكير فيه دون اسقاطه على الواقع المعني بالخطاب، وأي محاولة لفهم الخطاب دون الواقع هو ضرب من الخيال والأوهام. فلذا تلازم كتاب الله المسطور وكتاب الله المنشور، وكلاهما من عند الله تبارك وتعالى الأول وحياً، والثاني خلقاً، وإذا ظهر تصادم بين الواقع المقطوع بصحته وظاهر النص، يقدم الواقع المعلوم ويؤول النص بما يتناسب

---

٣٢ - راجع رسالة الآحاد والإجماع والنسخ للمؤلف.

مع الواقع، لأن الواقع هو فعل الله والقرآن خطابه، أنزله بلغة وضعية نسبية، والفعل أبين وأصرح ومحدد أكثر من الكلام. وهذا المنهج ليس هو تحكيم للهوى في النص، وإنما هو تحكيم لفعل الله وفهم كلامه من خلال فعله، وكل ذلك ضمن القواعد والمنطلقات اللغوية.

وفكرة التصادم بين فعل الله [الواقع] ومدلول النص [القرآن والسنة القطعية] يستحيل وجودها. لأن الفعل والكلام هما من جهة واحدة.

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[٣٣].

وإن افتراض التصادم بينهما يعني بطلان أحدهما، والبطلان لايكون للواقع المشاهد، وإنما يكون للنص. وبالتالي فليس هو من عند الله كما أخبر ربنا بذلك.

وبما أن النص القرآني ثابت بشكل قطعي أنه من عند الله، مما يدل على أن التطابق والموافقة أمر لازم وحتمي بين الواقع المخلوق، والكتاب المنطوق، وإذا ظهر تعارض بينهما فلا يوجد إلا وجهين للتوفيق بينهما:

الأول: انكار الواقع المشاهد، واغماض العين عنه!!

الثاني: تأويل النص ضمن القواعد اللغوية والمنطقية بما يتناسب وينسجم مع الواقع. وبالتالي يتطابق فعل الله مع كلامه. فالحكم حين الخلاف ليس للعقل السلفي أو الخلفي أو الصوفي.. إنما هو للعلم القطعي، وهو واحد عند كل الناس. فلا يوجد علم رياضي شرقي، وآخر غربي، فالعلم لاهوية له ولا يعرف الحدود والفوارق أبداً، كما أنه لامحاباة فيه ولا عصبية ولا قومية، يقول الأستاذ جودت سعيد: [الوجود الخارجي: هو الحقيقة الثابتة التي نرجع إليها عند الاختلاف، والصور الذهنية قابلة للزيادة والنقصان. فعلم الفلك والطب والكيمياء وسواها حقائق خارجية ثابتة

---

٣٣ - النساء - ٨٢.

السنن، ولكن الصور الذهنية عنها تتفاوت تفاوتاً كبيراً على مر الزمن. . . الخ]. ـ إلى أن قال: ـ [والمرجع عند النزاع هو الحقائق الخارجية وليس الصور الذهنية][٣٤].

وقال في موضع آخر في كتابه: [إن السنة ثابتة هذه حقيقة أولية بل ويمكن أن نقول: إنها فطرية. إذ لامعنى للعلم إن لم يكن مستمراً وثابتاً ودائماً، والإنسان لايتحرك ولايقضي من أمره شيئاً ولا يخطو خطوة واحدة إلا على أساس ثبات السنن][٣٤].

وما قرره الأستاذ جودت سعيد هو شيء مشاهد في الواقع. فلولا ثقة الناس بثبات السنن، لما ركب أحد في الطائرة، ولما أبحر أحد في سفينة.

والعلم في الواقع هو علمان: علم الآفاق، وعلم الأنفس. وكلاهما لهما سنن تجري الأحداث بحسبها فالإنسان عندما اكتشف سنن الطبيعة استطاع أن يلجمها، ويمتطي ظهرها، ويوجهها لما فيه الخير والمنفعة، بل استطاع أن يتدخل بشكل مباشر لإيجاد أشياء لم تكن موجودة، ولن توجد لولا تدخل الإنسان بسير السنن ومعرفة كيف بدأ الخلق فأوجد على سبيل المثال شجرة تحمل برتقالاً وليموناً بنفس الوقت، وأخرى تحمل مشمشاً وخوخاً بنفس الوقت، وهذا لم يكن له وجود، ولولا تدخل الإنسان واكتشافه للسنن لما خرج هذا النوع من الشجر إلى حيز الوجود[٣٥]. فعلم الآفاق هو اكتشاف وتنبؤ وتسخير للسنن، وتوجيهها لمصلحة الإنسان.

فمجرد الاكتشاف النظري للشيء لايسمى علماً حتى يخضع للتنبؤ والتسخير، ويصبح تحت إرادة الإنسان، عندئذ يصبح علماً.

بينما علم الأنفس هو إضافة إلى ماسبق مسألة العاقبة للأحداث. وهي

---

٣٤ ـ راجع كتاب اقرأ وربك الأكرم.

٣٥ ـ نقلاً عن كتاب العودة إلى الذات د. شريعتي.

المآل الـذي يؤول إليـه الحـدث، وذلـك يتطلب زمنـاً قد يطول بخلاف علم الآفـاق، فلذلـك كان التـاريخ هو المادة الخصبة لعلم الأنفس لمعرفة العواقب الاجتماعية، والقرآن نوه على ذلك فقال: ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً﴾[٣٦]، وقال: ﴿والعاقبة للمتقين﴾[٣٧].

فمعـرفـة أن السلوك الاجتـماعي هو صالـح أو فاسـد يكـون من خلال استمرار نفعه للناس، وهذا يكون في النظر لمآله ﴿وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ . والإنســان كما أنه يستطيع التدخل بشكل مباشر في سنن الآفاق سواء في اسراع عملية الحدث، أو جعل النتيجة لصالحه أيضاً يستطيع التدخل في سنن الأنفس، ويقـوم بعمليـة التسريع للأحداث وجعل النتيجة لصالحه، وهذا العلم بشقيه الآفاق والأنفس هو من علم الله، فمن يكتشف هذا العلم يكون إطلع على شيء من علم الله بمشيئته وإذنه.

يقول الأستاذ جودت سعيد:[٣٨]: [إن كان باب السماء أغلق من جانب إلا أن باباً آخر قد فتحه القرآن ليكون الرسول أكثر تابعاً، وهذا الباب هو باب الآفـاق والأنفس، إنـه باب سنعـرف منـه صدق القـرآن على مر الـزمن وبـه نصحـح أفهـامنـا للقرآن ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق..﴾[٣٩]].

---

٣٦ - فاطر - ٤٣.

٣٧ - آل عمران - ١٢٨.

٣٨ - راجع كتاب اقرأ وربك الأكرم.

٣٩ - الرعد - ١٧.

البــاب الأول

ألــوهــيــة الله

١ ـ وجود الله حقيقة ، وليس فكرة متخيلة .
٢ ـ أساس الإيمان ومحور الأديان .

وجود الله حقيقة وليس فكرة متخيلة

إن الإيمان بالخالق المدبر فطري في كل إنسان. إلا أن هذا الإيمان الفطري يأتي عن طريق الوجدان وهو طريق غير مأمون العاقبة، ولا يوصل إلى تركيز إذا ترك وحده. فالوجدان كثيراً مايضفي على مايؤمن به أشياء لاحقائق لها. ولكن الوجدان تخيلها صفات لازمة لما آمن به، فوقع في الكفر أو الضلال. وماعبادة الأوثان والخرافات والترهات إلا نتيجة لخطأ الوجدان، ولهذا لم يترك الإسلام الوجدان وحده طريقة للإيمان، حتى لايجعل لله صفات تتناقض مع الألوهية، أو يجعله ممكن التجسد في أشياء مادية، أو يتصور إمكانية التقرب إليه بعبادة أشياء مادية، فيؤدي إلى الكفر، أو الإشراك، وإما إلى الأوهام والخرافات التي يأباها الإيمان الصادق، ولذلك حتم الإسلام استعمال العقل مع الوجدان، وأوجب على المسلم استعمال عقله حين يؤمن بالله تعالى، ونهى عن التقليد في العقيدة، ولذلك جعل العقل حكماً في الإيمان بالله. قال تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾[1]. وقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾[2]. ولهذا

---

١ ـ محمد ـ ١٩.

٢ ـ آل عمران ـ ١٩٠

كان واجباً على كل مسلم أن يجعل إيمانه صادراً عن تفكير وبحث ونظر في الكون لاستنباط سننه، وللإهنداء إلى الإيمان ببارئه يكررها القرآن مئات المرات في سوره المختلفة، وكلها موجهة إلى قوى الإنسان العاقلة تدعوه إلى التدبر والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبينة تحذره الأخذ بما وجد عليه آباءه من غير نظر فيه، وتمحيص له، وثقة ذاتية بمبلغه من الحق: ﴿أو لو كان آباؤ هم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[3].

هذا هو الإيمان الذي دعا إليه الإسلام، وهو ليس هذا الإيمان الذي يسمونه إيمان العجائز، إنما هو إيمان المستنير المستيقن الذي نظر، ونظر، ثم فكر، وفكر، ثم وصل من طريق النظر والتفكير إلى اليقين بالخالق المدبر جلت قدرته[4].

فوجود الله هو وجود موضوعي حقيقي، وليس فكرة مفترضة يُدَلَّل على صحتها أو بطلانها، ووجوده مدْرَكٌ في عالم الشهادة كإدراك وجود الشمس في رابعة النهار، والتشكيك بوجوده من بعض الناس لايغير من الحقيقة شيئاً، فالشمس ساطعة في كبد السماء، وظهورها واضح للعيان، فإذا أغمض أحد عينيه وادعى عدم وجودها، لايُلتَفت إليه، لأنه ينطبق عليه قول القائل: لايصح شيء في الأذهان.. إذا احتاج النهار إلى دليل.

فوجود الخالق المدبر أمر ثابت من خلال الأدلة القطعية المشاهدة في الواقع المادي الذي يتصف بالمحدودية والاحتياج، وهما صفات لازمة له، تثبت بما لايدع الشك من سبيل بأنه لابد من جهة أزلية ابتدأت وجود هذا الواقع المحدود، واستمرت بعنايته ورعايته، وهذه الجهة ليست هي إلا الخالق المدبر الأزلي في الوجود السرمدي في البقاء، وصفة الأزلية عقلاً يستحيل تعددها، إذ لايتصف بها إلا واحد، لأنها لاتقبل المشاركة ولا بأي شكل، لأن

٣ ـ البقرة ـ ١٧٠

٤ ـ نظام الإسلام ـ النبهاني.

المشاركة في الحقيقة هي نفي لها، وللدلالة على ذلك نقول على سبيل المثال: إن كمال السرعة في حدود علمنا موجود في الضوء، فإن أي جسم آخر إذا سار بسرعة أقل من سرعة الضوء فلا يصبح ضوءاً، وإنما يبقى جسماً مغايراً للضوء، ولكن إذا سار جسم بسرعة الضوء يصبح ضوءاً. حيث أنه لايسير بسرعة الضوء إلا الضوء. فالسيارة تصبح ضوءاً، والإنسان يصبح ضوءاً، والصاروخ يصبح ضوءاً، إذا بلغت سرعتهم سرعة الضوء، أي تنتفي ماهيتهم[٥].

وهكذا نرى أن كمال السرعة لايكون إلا في واحد، وهذا الواحد لايحتمل الشريك أبداً لأنه إن قبل المشاركة يكون بذلك قد انتفت عنه صفة كمال السرعة، لأن الكمال لايتعدد، وكذلك صفة الأزلية لله تبارك وتعالى لاتقبل المشاركة ولا بأي شكل من الأشكال، لأن قبول الشريك هو نفي لألوهية الله الواحد الأحد.

---

٥ ـ الكتاب والقرآن ـ د. شحرور.

أساس الإيمان ومحور الأديان

إن أساس الإيمان بالله هو ألوهيته، وهذه المسألة هي محور دعوة الأنبياء والرسل، وذلك واضح وجلي من خلال تاريخ دعوتهم قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾[1].

وقال: ﴿وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[2].

هذا هو المحور الرئيسي الذي يدور عليه النقاش والخلاف، فتارة يعرض بعده طلب العبادة نحو قوله تعالى: ﴿لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[3]. وربط العبادة بالألوهية يظهر في الواقع من خلال العبادة، لأن العبادة هي أحد مظاهر مفهوم الألوهية. وكون العبادة هي احدى صفات الإنسان اللازمة لإنسانيته، فالإنسان كائن متعبد بالفطرة. فغالباً يقع الشرك بها لظروف سياسية واجتماعية وثقافية، فكان التركيز عليها أمر طبيعي قال تعالى: ﴿فقال يقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾[4].

---

١ - النحل - ٢

٢ - الأنبياء - ٢٥

٣ - الأنبياء - ٢٥

٤ - الأعراف - ٥٩

- وتـارةً يعـرض مع الألوهية توحيد الذات والصفات، قال تعالى: ﴿إنما الله إلـه واحـد سبحانه أنى يكون له ولد﴾[٥]. وقال: ﴿لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد﴾[٦].
- وتـارة يركـز الرسل على توحيد الربوبية لله نحو قوله تعالى: ﴿قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء﴾[٧].

وكانت مسألة الخالقية تعرض على أنها صفة لازمة لله لاتنفك عنه أبداً فالله هو الخالق.

والقـرآن ركـز على جميـع جوانب التـوحيد، لأنه كتاب أنزله الله للناس على مرِّ الـزمـان يخاطب مختلف الملل والنحـل، والنـاس مختلفـة في موضـوع الشرك، فمنهم من كان يوحد الله بصفة الخالقية، ولكنهم مشركين بالربوبية، نحــو العـرب الجـاهليـين. قال تعـالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السمـوات والأرض ليقولن الله﴾[٨].

فالخـالق هو الله، أمـا مسألـة تدبـير الكـون - وهي معنى كلمة الرب - فهي محل نزاع قال تعـالى: ﴿قـل أغـير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء﴾[٩]. وظهر الشرك في الربوبية في الواقع بمظهر العبادة.

ومن الناس من يشرك في الألوهية نفسها نحو اعتقاد اليهود بأن عزيز ابن الله، واعتقاد النصارى بأن عيسى وأمه إلهين... الخ.

فلذا من الإجحـاف أن نقـول: أن أسـاس دعـوة الـرسـل هو العبـادة وحسب، لأن ذلك يجعلها دعوة قاصرة على الجانب التعبدي، فضلاً عن أن

---

٥ - النساء - ١٧١
٦ - المائدة - ٧٣
٧ - الأنعام - ١٦٤
٨ - لقمان - ٢٥
٩ - الأنعام - ١٦٤

العبـــادة سلوك ينبثق من مفهـوم ، والـدعـوة يجب أن تكـون للمفهـوم ، لأنـه الأسـاس والأصـل ، فلذلـك كان أسـاس دعـوة الـرسل هو مفهوم الألوهية ، والقـرآن انطلق منهـا معتمـداً عليهـا ، يفنـد جميـع معتقدات الناس الباطلة : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾[10].

١٠ ـ للتوسع في هذا البحث راجع كتاب توحيد الألوهية ـ للمؤلف.

الباب الثاني

العدم والشيء في القرآن

١ ـ تفسير: كل من عليها فان.
٢ ـ تفسير: كل شيء هالك إلا وجهه.

تفسـير [كل من عليها فان][1]

إن كلمة [فان] لغة تعني، القطع والذهاب، أفناهم الله، أي أذهبهم[2]. والذهاب للشيء يكون في الواقع على وجهين:

الأول: الفناء المكاني: وهو ذهاب الشيء دون أن يبقى منه شيء. نحو أن يأكل الإنسان طعاماً من إناء، فلا يبقى فيه شيء.

الثـاني: الفنـاء الكيفي: وهـو أن يذهب الشيء الموجود، ويتحول إلى شيء آخر مختلف تماماً عن الأول، وهذا مايسمى بالعدم، فانعدام الشيء هو ذهاب هذا الشيء من صورته الموجود بها في خبر كان موجوداً، والآن لا وجود له. نحـــو أن تحرق الخشب فيصبـح رمـاداً. فالخشب انعـدم وفني كخشب، ولكن حقيقـة هو تحول إلى شكـل آخـر في الـوجـود ألا وهـو الرماد، ولم يصبح الخشب لا شيء وإنما أصبح عدماً. وكذلك الإنسان إذا مات فموته هو انعدام وفنـاء كيفي، أي انتقـل من حالـة الوجود الإنساني إلى حالة الوجود الترابي، والإنسـان أصبـح في خبر كان ولم يصبح لاشيء، لأن أصل الإنسان الذي هو التراب مازال موجوداً، وإنما تحول الإنسان من كائن عافل له شكل معين إلى

---

١ ـ الرحمن ـ ٢٦

٢ ـ راجع مقاييس اللغة لابن الفارس.

مادة أخرى انتفت عنها صفة الإنسان. وهذا ثابت في العلم من أن المادة لاتفنى فناء مكانياً كلياً، وإنما تتحول من شكل إلى اخر، ويرافق هذا التحول تغير في القوانين. فالماء له وجود ضمن قوانين معينة، فإذا تعرض للحرارة تبخر، وأصبح بخاراً، ووجوداً البخار غير وجود الماء، وبالتالي فلكل منهما قوانين خاصة.

فهذه الحالة هي التي تسمى العدم، لأن العدم هو وجود الشيء في العلم أو الذهن فقط. سواء كان له وجود موضوعي ومن ثم انعدم، أو لم يوجد بعد، وإنما محله العلم فقط. لأن العدم لغة هو الفقر والفقد، وضده الكامن فيه هو الدعم الذي يدفعه إلى الظهور، وإذا قرنت (الدعم) بـ(العدم) وجدتهما ضدين مبنى ومعنى، إذ المعدوم عكس المدعوم ومع هذا فليس العدم لا شيء، وإنما هو شيء له وجود، إن الفقير موجود ولكنه معدوم، كما أن السيارة العاطلة موجودة. ولكنها معدومة، وهكذا نطلق على الأشياء التي لا وجود موضوعي لها أو معطلة الوظائف أنها عدم، فكلمة العدم لا تطلق إلا على شيء تصور الإنسان وجوده. سواء كان له وجود موضوعي خارج الذهن، أو وجود ذهني فقط لايتجاوزه[٣].

فالعدم هو شيء يعلمه الإنسان وليس هو اللاشيء. لأن اللاشيء لايتصوره الإنسان ولايعلمه أبداً، ولايكون محلاً للعلم أو التصور أو النقاش، لأنه لاشيء! قال تعالى: ﴿خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾[٤]. ولم يقل: خلقتك من عدم. لأن ذلك يعني وجود الإنسان بإرادة الله منذ الأزل. وهذا باطل، لأن الإنسان وجد بتوجه إرادة الله الأزلية إلى فعل الخلق، وقبل ذلك لم يكن للإنسان أي وجود لا في الإرادة ولا في العلم، أي لم يكن شيئاً.

---

٣ - راجع كتاب جدلية الحرف العربي للاستاذ محمد عنبر.

٤ - مريم - ٩

فالفناء المذكور في الآية السابقة ليس هو لكل شيء، وإنما هو لمن على الأرض: ﴿كـل من عليهـا فان﴾. والمقصـود ـ والله أعلم ـ هو انعـدام الحياة والـذهـاب لهذا الـوجـود الموضوعي، وانتقاله إلى وجود آخر، والبقاء لله تبارك وتعالى: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[5].

---

٥ ـ الرحمن ـ ٢٦

تفسير [كل شيء هالك إلا وجهه][1]

لمعرفة المدلول من النص لابد من معرفة معاني المفردات لغة، وكيف تستخدم في سياق الكلام، واسقاط ذلك النص على الواقع المعني بالخطاب.

ـ فكلمة (شيء) هي أوسع كلمة في اللغة العربية، لأنها تصلح أن تكون بديلاً عن مايتكلم عنه الإنسان، وتطلق على كل ماهو موجود.

فتطلق على الخالق: ﴿ليس كمثله شيء﴾[2].

وتطلق على المخلوق: ﴿وخلق كل شيء﴾[3].

وتطلق على الأمر إذا تعين وتحدد بالإرادة قبل إيجاده: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[4].

وتطلق على العلم نفسه، لأن العلم هو شيء قائم في نفس العالم: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾[5].

---

١ ـ القصص ـ ٨٨

٢ ـ الشورى ـ ١١

٣ ـ الفرقان ـ ٢

٤ ـ النحل ـ ٤٠

٥ ـ البقرة ـ ٢٩

فهذه هي كلمة الشيء، تطلق على كل ماهو موجود. سواء كان وجوده موضوعي، أو علمي، أو ذهني، أو إرادي.

ولكن يجب التنويه على ناحية مهمة جداً متعلقة بفهم كلمة الشيء أثناء استخدامها في النص، ولنأخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء﴾[٦]، نجد أن كلمة الشيء هي للعموم، فكل شيء هو مخلوق. بينما إذا أسقطناها على الواقع، نلاحظ أن واقع الحال استثنى من عموم كلمة شيء الخالق وصفاته، رغم أنه يطلق عليه شيء وهذا الاستثناء من عموم النص أمر يفرضه واقع الحال. لأن الله ليس بمخلوق، وكذلك صفاته.

ولنأخذ مثلاً آخر وهو قوله تعالى: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم﴾[٧]. فكلمة شيء: تشمل الأشياء كلها، ولكن نلاحظ أن الدمار لم يتناول المساكن. وذلك واضح من سياق النص نفسه.

ويضيف الواقع، أن الدمار لم يتناول السماء والأرض التي تقوم عليها مساكنهم ولا الجبال ولا النجوم.. إلخ. فكلمة شيء في النص ليس المقصود منها العموم المطلق، والذي يحدد المراد هو سياق النص والعقل، من خلال واقع الحال المعني بالنص.

- أما كلمة [هالك] فلغة: هي تستخدم للكسر والسقوط، ويقال: للإنسان الميت هلك[٨].

بيد أنه يجب التنويه إلى أن المعنى الذي يأتي به المعجم للكلمة ليس هو لحصرها في هذا الاستخدام، وإنما هو يأتي بالاستخدام الذي تم في فترة زمنية معينة حسب الأرضية المعرفية، حينئذ. فلذا على الباحث أن يعرف جوهر معنى الكلمة من خلال النموذج الموجود في المعاجم، ويستخدمها هو

---

٦ - الفرقان - ٢
٧ - الأحقاف - ٢٥
٨ - راجع مقاييس اللغة.

حسب احتياجه ضمن المحور الرئيسي الإمام لمعنى الكلمة. وكلمة هلك من هذه الكلمات فالمعجم نقل أن العرب استخدموها بدلالة السقوط والكسر، وأطلقوا على الميت اسم الهالك وهلك، فهل كل ميت يكون موته سقوطاً بما تعني تلك الكلمة؟ أم يوجد حالات لاسقوط فيها نحو من يموت على فراشه أو غرقاً في الماء؟ . . . الخ.

فالملاحظ أن الاستخدام للكلمة هو مجازي ويقصد به تغير الحال. من حال صالح إلى حال سيء فاسد، لذلك يقال للميت هلك ويقصد به تغير حاله إلى حال سيء. والقرآن استخدم هذا المعنى لكلمة هلك، قال تعالى: ﴿هلك عني سلطانيه﴾[9]. أي تغير وتحول وضعي من حال القوة إلى حال الضعف والعجز.

وقال أيضاً: ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته. .﴾[10].

أي غيرت وضعه وشكله من حال صالح وجيد إلى حال فاسد سيء لايصلح لشيء.

وقال أيضاً: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها. .﴾[11] وقال: ﴿وكم من قرية أهلكناها. .﴾[12].

- أما كلمة [وجه] فلغة: هي أصل واحد يدل على مقابلة لشيء. وربما عبرت عن الذات بالوجه[13].

فكلمة وجه هي تعبير عن مقابلة شيء لشيء، وتستخدم مجازاً

---

٩ - الحاقة - ٢٩

١٠ - آل عمران - ١١٧

١١ - الحج - ٤٥

١٢ - الأعراف - ٤

١٣ - المقاييس لابن الفارس.

بإستخدامات لاحصر لها، نحو أن تستخدم كلمة الوجه وتقصد بها الذات كلها.

وبعد معرفة معاني المفردات لغة وكيف نفهمها خلال السياق، ومعرفة أن واقع الحال يقضي على استخدامات النص على عمومه ويستثني منه واحداً، نأتي لتفسير النص حسب أرضيتنا المعرفية. ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ فهذه الجملة هي جزء من نص، ولايمكن أن نفهم الجزء إلا إذا أضفناه إلى الكل. فالنص هو: ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[١٤].

فكلمة [دعا] هي قصد وطلب لله، أو بمعنى الادعاء الذي هو الزعم[١٥]. وسواء كان المقصود بالنص المعنى الأول، أو الثاني، أو كلاهما، فالنتيجة واحدة ألا وهي هلاك الأعمال التي يفعلها الإنسان لغير الله عز وجل، ولايقبل الله من الأعمال إلا ماكان خالصاً له. وكلمة وجه في الآية هي بمعنى الجهة.

أما معنى الادعاء الذي هو الزعم بأنه يوجد إلهُ آخر غير الله يشاركه في أمور تدبير خلقه، فالهلاك مصير المدعي وإلهه المزعوم، والبقاء لله الواحد، وعبر عن ذلك بكلمة الوجه وقصد بها الذات.

أما إذا أخذت هذه الجملة لوحدها ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾

وكان المقصود من كلمة الوجه هو الذات، فتدل الجملة من خلال الواقع المعني بالهلاك: أن المادة كلها هالكة بمعنى التغير والتحول. وهذا ثابت في العلم بأن المادة تتحول من شكل إلى آخر ولا تفنى مكانياً، وإنما تفنى كيفياً، فهي دائمة التحول. فيصبح المقصود من الجملة ـ والله أعلم ـ أن كل شيء متحول ومتغير إلا الله فهو الباقي الثابت.

١٤ ـ القصص ـ ٨٨

١٥ ـ قاموس المحيط.

أما قوله تعالى : ﴿كل يوم هو في شأن﴾[16] فليس المقصود بالآية التغير والتجـدد لذات الله تبـارك وتعالى ، لأن ذات الله سبحانه أزلية سرمدية باقية ، وإنما التغير والتجدد هو لفعل الله ، ففعله كل يوم هو في شأن ﴿ويخلق مالاتعلمون﴾[17] ، ﴿فعال لما يريد﴾[18] .

---

١٦ ـ الرحمن ـ ٢٩

١٧ ـ النحل ـ ٨

١٨ ـ هود ـ ١٠٧

الباب الثالث

صفات الله الذاتية والفعلية

١ ـ صفات الله .
٢ ـ صفة القدرة .
٣ ـ صفة الإرادة .
٤ ـ صفة المشيئة .
٥ ـ صفة السمع والبصر .
٦ ـ علم الغيب .
٧ ـ علم الشهادة .

صفـات الله

إن الـذات الأزليـة السـرمـدية قطعاً لها صفات، إذ لا يعقل وجودها إلا بصفات قائمة بها، نحو صفة الحياة والقيومية: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيـوم﴾[1]، والسمـع والبصـر: ﴿وهـو السميـع البصـير﴾[2]. وصفة الإرادة والقـدرة والعلم ومـاشابه هذه الصفات التي لاتنفك عن الذات أبداً، بل هي من تمام وجـود الـذات. وبـما أنهـا صفات لازمة للذات الأزلية، فلقد أخذت صفـة الـذات نفسهـا من حيث الأزليـة والسـرمـدية التي يترتب عليها الكمال المطلق لكـل الصفـات، ويستحيـل عقلاً أن يقبل المشاركة بأي صفة منها، أو شبيه، أو كفؤ.

﴿ليس كمثله شيء﴾[3]، ﴿ولم يكن له كفؤاً أحد﴾[4].

فهذه الصفات الأزلية أطلق عليها العلماء اسم: الصفات الذاتية. وبما أن الله كان ولاشيء معـه، ومن ثم ابتـدأ خلق الخلق ظهـرت صفـات مرتبطة بالخلق، نحو صفة الخالق الرازق، المحي المميت، وماشابه ذلك.

فهـذه الصفـات كونهـا مرتبطة بالخلق الحادث أطلق عليها العلماء اسم

---

١ ـ البقرة

٢ ـ الشورى ـ ١١

٣ ـ الشورى ـ ١١

٤ ـ الإخلاص ـ ٤

الصفات الفعلية، أو الإرادية، كونها كلها مرتبطة بإرادة الله ومتعلقة بها، وبما أن هذه الصفـات الفعليـة متعلقـة بالـوجـود الحـادث مما يدل على أن هذه الصفات الفعلية حادثة أي لها ابتداء:

قال تعالى. ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾[5]

﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾[6].

ولا يذهبن بعقل القارىء أن هذه الصفات الحادثة هي اكتسابية، لأن الله لايقبل الاكتساب، لأنه أزلي كامل الصفات. وإنما هذه الصفات الفعلية هي أفعـال للذات الإلهيـة، فمثـلاً صفة الخلق لابد لها من إرادة وعلم وخبرة وحكمـة وقـدرة حتى يتم الخلق، فإذا خلق شيئـاً لايصح أن نقول أنه اكتسب أي شيء، لأنه أصلاً كامل الأوصاف فهو العليم القدير الخبير الحكيم.

وكل مافي الأمر أن العلماء أطلقوا على هذه الصفات الفعلية أنها حادثة للتفريق بين ذات الله الأزلية، وأفعاله الحادثة، لأن الخلق فعله الذي هو خلق السماء والأرض والجبال والنجوم والكواكب والإنسان... إلخ، وكل ذلك هو فعل محدث مما يدل على أن أفعال الله ليست أزلية، وإنما هي حادثة، لأنها لو كانت أزليـة للزم تعـدد الجهـة الأزليـة، وهـذا يستحيل عقلاً في الواقع، لأنها تتصادم مع ألوهية الله.

وأفعـال الله عنـدمـا تحدث فهي تحدث على شريـط الـزمن، فيـوجـد مايسمى تاريـخ أفعـال الله، وبـذلـك يظهر الزمن بالنسبة لأفعال الله ويسمى وقت الفعـل كذا، وأفعـال الله كون لها ابتـداء، والفعـل مستمـر في الخلق، ﴿ويخلق مالا تعلمون﴾[7] ظهر الزمن الماضي والحاضر والمستقبل المرتبط بفعل الله.

---

٥ ـ يونس ـ ٢٤

٦ ـ السجدة ـ ٧

٧ ـ النحل ـ ٨

صفة القدرة

إن صفة القدرة لله ثابتة عقلاً. لأنها من الصفات الأزلية التي يستحيل تصور عدم وجودها، وثابتة نقلاً. قال تعالى: ﴿ماكان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان علياً قديراً﴾[1].

فالله على كل شيء قدير، وهنا كلمة الشيء ليست على عمومها. لأن الله نفسه هو شيء، كما أن العدم المستحيل وجوده أيضاً شيء، كفكرة الشريك لله أو الولد أو الصاحبة.. الخ. كل ذلك هو شيء في العلم يستحيل وجوده. لأن وجوده هو نفي للذات الإلهية، مما يدل على أن كلمة الشيء لابد لها من ضابط يحدد المقصود منها، وليس هو إلا الواقع. ومن خلال دراسة الواقع علمنا أن الله قادر على كل شيء ممكن الوجود. أما الأشياء المستحيلة الوجود لا تدخل تحت مجال القدرة. نحو قول القائل: هل يستطيع ربك أن يخلق صخرة يعجز عن حملها؟! فإن قلت: نعم. لتثبت قدرة الله، نفيتها بنفس الوقت عندما أقريت عجزه عن حملها. وإذا قلت: [لا] نفيت القدرة مطلقاً!!!

وكما هو ملاحظ من كلا الجوابين أنهما غلط. لأن السؤال نفسه غلط.

---

١ ـ فاطر ـ ٤٤

لأن كل سؤال يجب أن يكون له تصور في ذهن السائل. فإن لم يكن له تصور للسؤال، فقطعاً لاجواب عليه لانتفاء الواقعية عن السؤال. وبالتالي يصبح السؤال سفسطة متناقضة. لأن هذا الشيء المطلوب ليس هو محل لظهور القدرة، وذلك لأنه عدم يستحيل وجوده، والشيء المستحيل الوجود لاتتناوله القدرة، وليس هو من وظيفتها. لأن مجرد أن تتناوله نفت نفسها، ونفت الذات الموصوفة، كقول القائل: هل تستطيع أن تسمع بعينك؟! والجواب هو: أن السمع ليس وظيفة العين، والعين وظيفتها الرؤية. فعدم وصف العين بالسمع ليس عجزاً بالعين نفسها، وإنما السؤال فيه مغالطة، ولا يوجد عند السائل تصور للعين ووظيفتها. وبالتالي هي مشاغبة سفسطية لاجواب عليها.

لذا من المنطقي أن الأشياء المستحيلة الوجود ليست محل لظهور القدرة، وليست من وظيفتها. وهذا الأمر ليس عجزاً أو نقصاً في القدرة، وإنما لأن هذه الأشياء عدم محلها الذهن أو العلم فقط. يستحيل أن يكون لها وجود موضوعي لتصادمها مع ألوهية الله الأزلي القادر على كل شيء ممكن الوجود.

إرادة الله

إن صفـة الإرادة لله صفـة أزليـة . فما أراده الله كان ، ومالم يرده لم يكن .
لنرى كيف تكون الإرادة وماوظيفتها من خلال الآيات :

قال تعالى : ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم . . ﴾[1]،

﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له﴾[2] .

نلاحظ أن إرادة الله للشيء حتمية من حيث الفعل،

قال تعالى : ﴿فعال لما يريد﴾[3]،

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[4] .

نلاحـظ أن أفعـال الله كلهـا مرتبطة بالإرادة ونلاحظ أن الإرادة كصفة مجردة أزليـة . أمـا حينـما تتـوجـه للفعل فالتوجه حادث ، وهذا واضح من قوله تعالى : ﴿إذا أراد شيئاً﴾[5] .

---

١ ـ المائدة ـ ٨٧

٢ ـ الرعد ـ ١١

٣ ـ هود ـ ١٠٧

٤ ـ يس ـ ٨٢

٥ ـ يس ـ ٨٢

قال تعالى: ﴿من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة﴾[٦]، نلاحظ أن الإرادة لاتتعلق بشيئين ضدين بنفس الوقت دائماً الإرادة تعزم وتقصد أمراً واحداً، وإذا عزمت على شيء كان الشيء حتماً ﴿فلا مرد له﴾، ﴿إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[٧].

فإرادة الله الأزلية قبل أن تتوجه إلى شيء لايوجد شيء مرادٌ، أي لايوجد شيء في إرادة الله الأزلية قبل التوجه للخلق، وإنما هي صفة أزلية مجردة.

أما وظيفة الإرادة: فنلاحظ من خلال واقع الإرادة والآيات أن وظيفتها العزم والقصد والتوجه والتحديد والتشكيل والتعلق بالشيء وهذا كله واضح، في قوله: ﴿إذا أراد شيئاً﴾، وقوله: ﴿فلا مرد له﴾، ﴿فعال لما يريد﴾.

فإرادة الله المتعلقة بالفعل هي إرادة حادثة حتمية لاتحتمل إلا وجهاً واحداً في التطبيق. ووظيفتها القصد والعزم والتحديد والتشكيل والتعلق بالشيء. أما الإرادة الأزلية فهي صفة مجردة لاشيء فيها.

---

٦ - الأحزاب - ٣٣

٧ - يس ٨٢

مشيئة الله

إن صفة المشيئة لله بينها وبين صفة الإرادة خصوص وعموم لنرى ذلك من خلال الآيات:

قال تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء﴾[1].

فمسألة اتخاذ الولد هو عزم وقصد، وذلك عمل الإرادة، بينما عملية الاصطفاء والاختيار عمل المشيئة.

فالإرادة - كما مرَّ آنفاً - هي القصد والعزم على شيء واحد بعينه، وتحديده، وهي متعلقة بالإيجاد، أما المشيئة فهي متعلقة بالاختيار أي لا تحدد شيئاً بعينه، وإنما وظيفتها الاحتمالات للشيء. ومن هذا الوجه فالمشيئة أعم من الإرادة، والإرادة أخص من المشيئة، كونها تحدد الشيء بعينه. وقد تكون الإرادة أعم من المشيئة من باب أن الإيجاد كله إنما يكون بالإرادة، والاختيار للموجودات بالمشيئة، وبالتالي تصبح أخص من الإرادة قال تعالى: ﴿وماتشاءون إلا أن يشاء الله﴾[2].

فمشيئة الإنسان لها احتمالات في الواقع. أما إذا حدد شيئاً بعينه نقول: أراده. أي قصده وعزم عليه، وهذه المشيئة الإنسانية هي ضمن مشيئة الله

---

١ - الزمر - ٤

٢ - التكوير - ٢٩

أيضـــاً الاحتـمالية ، إذ لو كانت لاتحتمـل إلا وجهـاً واحـداً لأصبحت إرادة ، واختلف المقصـــود من الآيـة ، فلو وضعنـا كلمـة الارادة بدل كلمـة المشيئـة ، لأصبحت الآيـة على الشكـل التـالي : ومـاتشـاؤ ون إلا أن يريد الله . فتكون مشيئـة الإنسـان وهميـة . وهو في الحقيقة ينفذ إرادة الله في الوجود . لأن الإرادة حتمية لاتحتمل إلا وجهاً واحداً ﴿فعال لما يريد﴾ ، ﴿إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكـون﴾ ، ﴿فـلا مرد له﴾ ، قال تعـالى : ﴿لـو شاء الله ماأشـركـوا﴾[٣] . لاحظ أن المشيئة تحتمل الشرك وتحتمل التوحيد بنفس المرتبة ، أي أن الله شاء الشـرك ، كما أنـه شاء التـوحيـد . ولم يرد واحـداً بعينه ، وإذ لو أراد واحداً منهما لانتفى التكليف وأصبح الناس منفذين لإرادة الله التي لا مرد لها ، إذاً المشيئة هي للإحتمالات ، وليست لتحديد شيء بعينه .

قال تعالى : ﴿لو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعاً﴾[٤] .

لاحظ أن الله استعمل صفة المشيئة ، ولم يستعمل صفة الإرادة ، لأنه لو استعمـل صفـة الإرادة لإنتفى الاحتـمال الثـاني وانحصر بشيء واحد وأصبح الناس مجبورين . بينما باستعمال المشيئة أثبت الاحتمالين معاً .

ولو وضعنا كلمة أراد بدل كلمة شاء في الآية لأصبحت الآية دليلاً على بقـاء النـاس على كفرهم . بل منفذين لإرادة الله إذ تصبح الآية على الشكل التـالي : لو أراد ربـــك لآمن من في الأرض جميعـاً أي لم يرد الإيـمان للجميـع وبـالتـالي فهو أراد لقسم منهم الكفر ، وإرادة الله حتمية ﴿لامرد له﴾ . مما يعني أن الإيـمان والكفـر هما بإرادة الله ، وليس للناس سوى التنفيذ لمراد الله . وهذا باطـل ومخـالف للواقـع الـذي يشهد بأن الإنسان مكلف له حرية الاختيار ، ومخالف للشرع أيضاً لأن الشرع أقر ذلك . بدليل تكليفه بالأمر والنهي وجعله مسؤ ولاً عن أعماله .

---

٣ ـ الأنعام ـ ١٠٧

٤ ـ يونس ـ ٩٩

قال تعالى: ﴿ولاتقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾[5].

إن العزم على العمل في الغد احتمالي لأنه ممكن أن يكون، وممكن أن لايكون.

لذلك قال الله للناس معلماً إياهم أن يقولوا: ﴿إلا أن يشاء الله﴾.

لو وضعنا كلمة يريد بدل كلمة يشاء لأصبح الإنسان مسيراً منفذاً لإرادة الله، وانتفى الفعل عن الإنسان لأن الفعل أصبح فعل الله، أراده بشكل حتمي. لذلك استخدم الله كلمة يشاء لإثبات الفعل للإنسان نفسه وإثبات الاحتمالين.

والخلاصة هي: أن الله خلقنا بإرادته، وشاء الاختيار منا بمشيئته.

فالإرادة للخلق والإيجاد والتحديد والتوجه، والمشيئة للاختيار والاحتمال ﴿فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾[6].

---

٥ ـ الكهف ـ ٢٣

٦ ـ الكهف ـ ٢٩

﴿إن الله هو السميع البصير﴾[1]

إن هاتين الصفتين هما صفات كمال وعظمة، وفقدانهما نقص ومذمة، وقد أثبت القرآن هاتين الصفتين بعدد من الآيات:

نحو قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[2].

والدارس للآيات يجد أن هاتين الصفتين هما صفات ذاتية لله، فهو السميع البصير أزلاً، ولهما جانب متعلق بإيجاد الخلق، وهو الجانب الفعلي لصفتي السمع والبصر، وقد استخدم القرآن صيغة الفعل لكل منهما بقوله: ﴿إني معكما أسمع وأرى﴾[3]. وقوله: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾[4]. وقوله: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾[5]. وقوله: ﴿قل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾[6].

---

١ ـ غافر ـ ٢٠

٢ ـ الشورى ـ ١١

٣ ـ طه ـ ٤٦

٤ ـ المجادلة ـ ٤

٥ ـ العلق ـ ١٤

٦ ـ التوبة ـ ١٠٥

فالجانب الفعلي لصفتي السمع والبصر هو الوظيفة لكل منهما. فالسميع يسمع، والبصير يرى.

فلا وجود للوظيفة دون محل لظهورها من الوافع. أي لابد من وجود أصوات حتى يظهر فعل [سمع ويسمع]. وكما أنه لابد من وجود صور وأشكال حتى يظهر فعل [رأى ويرى] وقبل وجود الصور والأصوات لاوجود لهذه الأفعال. وإنما الوجود هو الله السميع البصير، ولاشيء معه.

علم الغيب

إن الغيب هو كل مالايدخل في دائرة العلم الإنساني، وله وجود موضوعي أو وجود في علم الله فقط، يسمى غيباً. ومن هذا التعريف نعلم أن الغيب هو أمر منسوب للإنسان وليس لله، لأنه لايغيب عنه شيء، والغيب ليس المستقبل فقط، بل يتضمن الماضي المجهول حسب تعريف الغيب. قال تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾[1]. بعد أن سرد قصة يوسف، فأحداث التاريخ الماضية كلها بالنسبة إلينا غيب، بينما بالنسبة لله معلومة، كذلك الأحداث التي تحصل في الزمن الحاضر، ولكن لانعلمها نحن تسمى غيباً، قال تعالى: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾[2]. (وهو قول المرأة التي راودت النبي يوسف وقصدت بقولها أني لم أخنه وراء ظهره مستغلة عدم علمه ورؤيته لها) فالغيب ماغاب عنا ادراكه من الماضي والحاضر والمستقبل.

وعلم الغيب على اطلاقه أي بشكل احصائي وكلي، لايكون إلا لله حصراً كما قال جل شأنه: ﴿قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾[3]. ولكن لايعني هذا أن أحد من الخلق لايعلم شيئاً من الغيب،

---

١ ـ آل عمران ـ ٤٤

٢ ـ يوسف ـ ٥٢

٣ ـ النمل ـ ٥

فأحداث الماضي قد يعلمها أناس، ويجهلها آخرون، والأحداث التي تجري في الحاضر أيضاً يعلمها أناس ويجهلها آخرون، وأحداث المستقبل قد يأذن الله بالاطلاع عليها جزئياً، سواء من خلال اكتشاف السنن والقوانين ومعرفة النتائج مسبقاً، أو اطلاع عن طريق الوحي للأنبياء والرسل قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾[4]. وقوله: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[5]. فهذا هو الغيب وهو منسوب للخلق وليس لله، بينما الله عز وجل لا غيب عنه فهو عالم بما كان وما يكون وما سيكون من أحداث في الوجود الموضوعي السنني كحركة النجوم والكواكب.

بقي أمر آخر يجب التنويه إليه ألا وهو انفراد الله واختصاصه بعلم لا يمكن لأحد أن يعلمه أبداً ألا وهو علم الساعة، قال تعالى: ﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾[6].

فمتى تأتي الساعة؟ لا أحد يعلم سوى الله ومجيئها غير مرتبط بسنن وجود الكون وهلاكه، وإلا لأمكن معرفة مجيء الساعة من خلال دراسة عمر الكون وما مضى منه، وكم بقي له. وهذا ما أفاده قوله تعالى السابق: ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي فجأة دون سابق إنذار، وهي عملياً إيقاف جريان حياة الكون بشكل مفاجيء بإرادة الله وعلمه[7].

هذا جانب من العلم. أما الآخر فهو اختصاص علم الله بمفاتيح الغيب، قال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر

---

٤ ـ الجن ـ ٢٦ ـ ٢٧

٥ ـ البقرة ـ

٦ ـ الأعراف ـ ١٨١

٧ ـ الكتاب والقرآن ـ د. شحرور.

والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[8].

والغيب كما ذكرنا سابقاً، هو كل ماغاب عنا إدراكه وله وجود موضوعي بنوعيه الماضي والحاضر، أوله وجود علمي فقط، كوجود الساعة في علم الله، وماسوف يحصل من أحداث في الوجود السنني.

فالملاحظ أن الغيب هو الوجود كله، سواء كان موضوعياً، أو علمياً بشكل مطلق واحصائي، وهذا لايكون علمه كما قررنا إلا لله تبارك وتعالى.

وعلى ضوء ماتقدم نفهم قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾. أي عنده المفاتيح التي قام عليها الوجود كله سابقاً وحاضراً ولاحقاً، وهذه المفاتيح هي السنن الكلية الجامعة القائم عليها الوجود نفصيلا بكل سننه الحرنه وهذه المفاتيح الكلية لايستطيع أحد أن يعرفها سوى الله الخالق المدبر سبحانه وتعالى[9].

أما تفسير مفاتيح الغيب بقوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام﴾ خطأ، لأن أمر المفتاح نفسه لاأحد يستطيع أن يعرفه. لأن معرفة المفتاح هو في الحقيقة معرفة لما خلق المفتاح من علوم، وهذا الأمر نفاه الله عن الخلق.

فلذا معرفة المفتاح نفسه يستحيل عل الخلق، أما الأمر الثاني فهو أن الأيتين مختلفتين وكل منهما بموضوع.

---

٨ ـ الأنعام ـ ٥٩

٩ ـ الكتاب والقرآن ـ د. شحرور

علم الشهادة

بعد أن ذكر الله علم الغيب بقوله: ﴿علم الغيب والشهادة﴾، عطف عليه الشهادة، وهو من باب عطف الخاص على العام. فكما لاحظنا آنفاً بعلم الغيب أنه يتضمن الوجود المشاهد، أي الحاضر، فكل مايجري في عالم الشهادة يعلمه الله، قال تعالى: ﴿إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾[1]. وقوله: ﴿ويعلم مافي البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[2]، وقوله: ﴿يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أين ماكنتم والله بما تعلمون بصير﴾[3].

لاحظ فعل [لايخفى ـ ويعلم ـ وتسقط ـ وإلا يعلمها ـ ويعلم مايلج ومايخرج وماينزل ومايعرج ـ] كلها أفعال مضارعة تفيد الحدوث في الزمن الحالي والاستمرار. فكل هذه الأفعال في الوجود الموضوعي هي تحت علم الشهادة. وكذلك بالنسبة للوجود الإرادي (أي الكائن ذو الإرادة الحرة). قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور﴾[4]، ﴿ويعلم ماتسرون

---

١ ـ آل عمران ـ ٥

٢ ـ الأنعام ـ ٥٩

٣ ـ الحديد ـ ٤

٤ ـ غافر ـ ١٩

ومـاتعلنـون﴾[٥]، ﴿ويعلم ماتخفـون ومـاتعلنـون﴾[٦]، ﴿وربك يعلم ماتكن صدورهـم ومـايـعـلنـون﴾[٧]، ﴿واعـلمـوا أن الله يعـلم مافي أنـفـسـكـم فاحذروه﴾[٨]، ﴿إن تخفوا مافي صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾[٩]، ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون﴾[١٠]، ﴿والله بعلم ماتصنعون﴾[١١]، ﴿قال ربي يعلم القـول في السماء والأرض وهـو السميـع العليم﴾[١٢]. لاحـظ فعل (يعلم) في الآيات كلها وكيف هو مرتبط بالسلوك الإنساني الواعي الحاضر أي الـذي له وجـود. فالإنسـان إذا أخفى شيئـاً في نفسه، فما أخفاه دخل في دائرة الوجود ودخل في دائرة العلم الإلهي، فإذا غير نيته وقصده كان ذلك أيضاً في عالم الشهـادة وهـو في دائـرة الـوجود، وإذا لم يكن في نفسه شيء فالله يعلم أنه لاشيء بنفسـه الآن، فما يحدث في الـوجـود سواء بحـركـة الـوجود الموضوعي السنني، أوحركـة الـوجود الموضوعي الإرادي يعلمه الله ولايغيب عنه شيء، قال تعـالى: ﴿يـوم يبعثهم الله جميعـاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾[١٣]، ﴿إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما﴾[١٤]، ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾[١٥]، ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾[١٦]

---

٥ ـ النمل ـ ٧٤
٦ ـ النمل ـ ٢٥
٧ ـ القصص ـ ٦٩
٨ ـ البقرة ـ ٢٣
٩ ـ آل عمران ـ ٢٩
١٠ ـ الأنبياء ـ ١١٠
١١ ـ العنكبوت ـ ٤٥
١٢ ـ الأنبياء ـ ٤
١٣ ـ المجادلة ـ ٦
١٤ ـ الأحزاب ـ ٥٤
١٥ ـ النساء ـ ٣٣
١٦ ـ آل عمران ـ ٦٢

الباب الرابع

علم الله الذاتي والفعلي

١ ـ علم الله في القرآن .
٢ ـ تفسير وهو بكل شيء عليم .
٣ ـ صفة علم الله الفعلية [علم ويعلم] .

علـم الله في الـقـرآن

إن كتاب الله عز وجل أنزل بلغة عربية، قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[1]، فما يستخدمه من ألفاظ تكون صمن مجال الإدراك العقـلي لمعـاني هذه الألفـاظ العـربيـة، ولايصـح أن نقـول: أن الله استخدم الكلمـة العـربيـة المتعارف عليها بمعنى معين ضمن قواعد اللغة أنه قصد بها خلاف ماهو معلوم لغة وخلاف القواعد النحوية الموضوعة استقراء من اللغة نفسها.

وإن من يقـوم بذلـك العمـل هو في الحقيقـة ينطلق من افـتراض فكرة مسبقاً بذهنه، ومن ثم يقوم بمحاولة الاستدلال عليها بالنصوص، ولو أدى به الأمـر إلى اخـراج النص وإبعـاده عن مدلـولـه الحقيقي، وتحميله مالا يحتمل لغة. فلذا يجب علينا أثناء البحث والدراسة التجرد بشكل موضوعي عن كل فكرة مسبقة، ودراسة النصوص على ماهي عليه وفق منهج علمي مسلم به، ومن ثم تقرير النتيجة التي تخرج معنا.

إن الدارس للنصوص القرآنية التي تناولت صفة علم الله يجد أنها جاءت:

---

١ ـ يوسف ـ ٢

- بصيغة الفعل الماضى [عَلِمَ]:

قال نعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾[٢]

وقال: ﴿علم أن لن تحصوه﴾[٣].

- وصيغة الفعل الحاضر المضارع [يعلم]:

قال تعالى: ﴿والله يعلم ماتسرون وماتعلنون﴾[٤].

وقوله: ﴿يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها﴾[٥].

- وصيغه الصفة [عليم]:

قال تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾[٦].

وقوله: ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾[٧].

فمن الغلط خلط الفعل الماضي في الفعل المضارع مع الصفة وأن المقصود بهم جميعاً هو أمر واحد، ولافرق بين هذه الاستخدامات المختلفة.

فهذا أمر شنيع، وعمل غوغائي، وانقاص من قيمة القرآن، ووصفه بعدم الدقة في استخدامه للأفعال والصفات أو الأسماء بشكل غير مباشر، بجانب احتوائه على الحشو واللغو، وكل هذه الأمور منزه عنها لأنه من لدن حكيم عليم...

فكل كلمة لها مدلولها المستقل، وليس الفعل الماضي مثل الفعل المضارع. وبالتالي فلكل مدلولها من الواقع.

---

٢ - البقرة - ١٨٧

٣ - المزمل - ٢٠

٤ - النحل - ١٩

٥ - سبأ - ٢

٦ - الحديد - ٣

٧ - النمل - ٦

تفسير ﴿وهو بكل شيء عليم﴾[1]

إن صفة العلم لله عر وجل في القرآن أخذت جانبين: الأول صمة ذاتية لله وهي ماعبر عنها القرآن بكلمة [عليم]. والجانب الآخر هو صفة فعلية وهي ماعبر عنها القرآن نفعل [عَلِمَ ويعلم].

أما صفة الله [العليم]، فهي صفة ثابتة في الواقع: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2]، وهي صفة ذاتية لله، وكونها صفة للذات فقد أخذت نفس صفة الوجود الذاتي من حيث الأزلية والكمال المعرفي المطلق التي لاتقبل الشريك أبداً.

فالله هو العليم بكل العلوم بتمامها وكمالها: ﴿خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾[3].

والخلق هو فعل الله المشاهد، ويعرف صفة الفاعل من فعله، فإذا درسنا فعل الله وجدنا أن هذا الخلق مخلوق بقوانين لازمة له تحكمه لايخرج شيء عن قانونه والوجود هو نوعان: عالم الآفاق وعالم الأنفس: ﴿سنريهم آياتنا

---

١ - الأنعام - ١٠١

٢ - الملك - ١٤

٣ - الأنعام - ١٠١

في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبـين لهم أنـه الحق﴾[٤]. فعلم الآفاق هو العلوم الكـونيـة كلهـا، وعلم الأنفس هو العلوم الإنسـانية، وكلاهما محكومين بسنن يسـيران بحسبهـا: ﴿إنـا كل شيء خلقنـاه بقـدر﴾[٥]، ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسـيروا في الأرض فانظـروا كيف كان عاقبـة المكـذبين﴾[٦]، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾[٧].

والآفاق والأنفس: هما كتاب الله المنشور، والقرآن كتاب الله المقروء.

ولفهم الكتـاب المنطـوق يجب اسقـاطـه على كتـاب الله المنشـور ليتم التطـابق وفهم المـراد، لأن آيـات الله لها وجهـان: الأول هو الـدال الـذي هو القرآن، والآخر المدلول الذي هو عالم الآفاق والأنفس، ولابد من تطابق الدال مع المدلول، عندئذ يتبين للناس أن هذا الكتاب هو الحق من ربهم.

فالسنن التي تم بمـوجبهـا خلق الكـون واستمراره وتطوره هي من علم الله. لأن الخلق خلق بعلم: ﴿ألا يعلم من خلق وهـو اللطيف الخبـير﴾[٨]. فالـعـلم شيء سابـق عن الخـلق، والخـلق شيء لاحق للعلم. فما يكتشفـه الإنسـان من حقـائق علميـة سواء في الآفـاق أو الأنفس هو في الحقيقـة معرفة لشيء من سنن الله في الوجود أي من علمه. فكل حقيقة علمية هي سنة الله في الوجود، فما الحقائق الرياضية أو الفيزيائية أو الطبية أو الكيميائية.. الخ إلا سنن الله التي تم بمـوجبهـا خلق الخلق واستمـراره، فالإنسـان لا يصنع حقيقة علمية وإنما يكتشفها من خلق الله، ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ

---

٤ ـ فصلت ـ ٥٤

٥ ـ القمر ـ ٤٩

٦ ـ آل عمران ـ ١٣٧

٧ ـ الأحزاب ـ ٦٣

٨ ـ الملك ـ ١٤

الخلق﴾[9]. وتسميه هذه الحقيقة العلمية هي مجرد إصلاح، ولامشاحة في الإصلاح، فلذلك جمع العلماء مجموعة السنن المتعلقة ببعضها ذات الموضوع الواحد تحت اسم علم معين، ليتم التفاهم والتخاطب فيما بينهم فقالوا: علم الرياضيات، وعلم الفيزياء، وغيره، وهدا لايغير من الحقيقة شيئاً بأن مجموعة هذه الحقائق العلميه هي من علم الله الثابت الذي لايتبدل أويتغير.

وبما أن صفة العلم لله أزلية ومرحلة اللاشيئية سابقه عن الوجود قال تعالى: ﴿خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾[10]. وقال. ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾[11]، وقال ﷺ: [كان الله ولا شيء معه]، وفعل التوجه والقصد والتعلق والتحديد ليس وظيفة العلم وإنما وظيفة الإرادة، والخلق نم بتوجه حادث للإرادة ﴿إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[12]. مما يدل بشكل قطعي على أن العلم هوشيء تجريدي سنني لاوجود للنماذج أو الأمثلة أو الأشكال فيه، لأن ذلك هو وظيفة الإرادة وليس العلم.

وافتراض وجود هذه الأشكال أو النماذج في العلم قبل توجه الإرادة الحادثة إليه باطل من وجهين: الأول: جعل صفة العلم والإرادة شيء واحد ولهما نفس الوظيفة، وهذا خطأ. أما الوجه الآخر للبطلان فهو أن وجود النماذج والأشكال للخلق في العلم الأزلي يعني أن العلم هوعلم قائم على النماذج المحدودة، وبالتالي فهومحدود، كما أنه يعي أن الله في حالة تصور أزلي للخلق، وأن علمه اكتسابي وليس علماً ذاتياً. لأن النماذج والأمثلة هي صفات لعلم المخلوق واكتسابه العلم بالشيء. بخلاف الخالق الأزلي فعلمه ذاتي، والعلم الذاتي لايحتاج بل لايوجد به نماذج وأمثلة، لأن وجودها في الحقيقة هي

٩ ـ العنكبوت ـ ٢٠

١٠ ـ مريم ـ ٩

١١ ـ يونس ـ ٣٤

١٢ ـ يس ـ ٨٢

تطبيق عملي لعلم سنني أي تجربة وخبرة مكتسبة. وهذا يدل على محدودية العالم وتصوره في العلم وعدم استطاعته القطع بالعلم فاحتاج إلى التجارب ليثبت علمه. فوجود هذه النماذج في العلم دليل على قصور العالم على هذه النماذج ومحدودينه، وأن علمه علم اكتسابي تجريبي ظني يرقى إلى الحقيقة مع الزمن، بخلاف العلم التجريدي السنني الذاتي، فهو علم يستخدم في إيجاد نماذج وأشكال غير متناهبة.

فعلم الله الأزلي هو نظام معرفي تجريدي سنني شامل كل العلوم بشكل إحاطي، ووظيفة هذا العلم هو الاستخدام لإيجاد الشيء الذي يتعبن ويتحدد بالإرادة الحادثة.

فلا يوجد في العلم التجريدي السنني زيد وعمرو من الناس، وإنما فيه كيف يمكن خلق زيد وعمرو. أي السنن التجريدية التي تستخدم في خلق وإيجاد مانعين بالإرادة الحادثة

بعد أن عرفنا صفة الله العليم. نأتي لتفسير قوله تعالى:

﴿خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾

فالملاحظ أن المخلوقات هي عين الأشياء، والعلم متعلق بالشيء مما يدل على أن الشيء المخلوق هو شيء معلوم، والمخلوق وجد بتوجه الإرادة الحادثة نحوه قصداً، وتحديده كماً وكيفاً. وقبل أن تتوجه الإرادة نحو الشيء وتحدده كماً وكيفاً لا وجود له، أي لا شيء موجود حتى يتعلق به العلم، وإنما كان الله ولا شيء معه. فلذا كل مخلوق معلوم بمعنى أن كل مخلوق خلق بتوجه إرادة الله الحادثة محدد الكم والكيف بواسطة العلم الأزلي، فيصبح علم الله متعلق بالخلق، فكل ما هو مخلوف معلوم، كما أنه كل مايريد أن يخلقه فهو قادر عليه، وذلك باستخدام علمه الأزلي التجريدي السنني الكامل.

أما مسألة تحديد مصير الإنسان الواعي قبل خلق الخلق فالآية لا تدل عليه أبداً لا من قريب ولا من بعيد، وافتراض أن مصير الناس هو شيء،

والشيء معلوم، فهذا خطأ، لأن كلمة شيء لاتطلق إلا على الموجود، ومصير الناس قبل الخلق غير موجود مما يدل على أنه ليس شيئاً، وكونه لاشيء فقطعاً لايتعلق به شيء لاقدرة ولا علماً.

وافتراض أن مصير الناس قبل خلقهم محدد بالعلم، وبالتالي هو شيء في العلم، فخطأ أيضاً من أوجه عدة:

الأول: أن العلم ليس وظيفته التحديد، وإنما هو وظيفة الإرادة.

الثاني: أن هذا الكلام يعني أن الله عالم بما يعلم، وهذا سفسطة وهراء لامعنى له.

الثالث: إن هذا الكلام يقتضي دمج صفة العلم والإرادة، واعطائهما نفس المعنى.

الرابع: إن هذا الكلام يعني في الواقع إرادة الله لمصير الخلق أزلاً، وهذا يقتضي إجبار الناس على سلوكهم، وهذا الكلام باطل لأنه مخالف لعالم الشهادة ومقتضى حال الناس، مما يدل على أن مصير الإنسان الواعي لم يتحدد بالإرادة، ولم تتعلق به، وإنما هو أمر لم يحدث بعد. أي لاشيء حتى يتعلق به العلم. وحين حدوثه يحدث في عالم الشهادة لايخفى على الله منه شيء.

صفة الله الفعلية [عَلِمَ ويعلم]

إن صفة الله الفعلية [يعلم] استخدمها القرآن بصيغة المضارع، ومعروف أن دلالة المضارع هو للحاضر المستمر، أي لعالم الشهادة، فما يحدث في عالم الشهادة سواء من الظواهر الطبيعية الجزئية، أو السلوك الإنساني الواعي، إنما يحدث ضمن دائرة السمع والبصر: ﴿إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾[1]، ﴿ربنا إنك تعلم مانخفي ومانعلن ومايخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾[2].

وصفة الله الفعلية (يعلم) جاءت مرتبطة بالظواهر الطبيعية الجزئية والسلوك الإنساني الواعي.

أما ارتباطها بالظواهر الطبيعية الجزئية ففي قوله تعالى:

﴿ماتسقط من ورقة إلا يعلمها﴾[3].

﴿ما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾[4].

---

١ - آل عمران - ٥

٢ - إبراهيم - ٣٨

٣ - الأنعام - ٥٩

٤ - فاطر - ١١

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وماتزداد. . . ﴾[٥].

فخلق الجنين في بطن أمه ومراحل تطوره إلى منتهاه كل ذلك إنما هو بسنن الله المعلومة مسبقاً.

أما مسألة معرفة الحمل والولادة ومتى سوف تسقط الورقة المعينه قبل خلقهم ووجودهم في الواقع، فهذا أمر لاعلاقة له بالعلم الأزلي، لأن العلم الأزلي هو نظام معرفي سنني تجريدي تم عملية خلق الشيء الذي تعين في الإرادة بواسطة هذا العلم التجريدي السنني الأزلي، وعلاقة هذه الأشياء المستجدة هي بالعلم الفعلي المتعلق بعالم الشهادة، لذلك استخدم الله عز وجل فعل المضارع ليدل على أنه كل مايحدث إنما يحدث تحت السمع والبصر الإلهي. لذلك وجود الأوراق على الشجر، والأجنة في الأرحام، وفرصة استمرارهم إلى أجل، موجودة للجميع بشكل متساوي، وكل ذلك إنما هو بقانون سابق معلوم.

أما تعرض بعض الأوراق أو الأجنة لحالات أدت إلى سقوطها نحو المرض، أو الإفساد، أو القتل. . الخ، كل ذلك إنما هو عارض عرض لها في عالم الشهادة، يحدث ضمن دائرة السمع والبصر الإلهي، ولولا هذه الأعراض لاستمر الأمر في الواقع إلى منتهاه حسب السنن، أي يستمر الحمل وتطوره حتى يلد الجنين بسلام، لينتقل إلى عالم آخر وسنن أخرى، وهكذا يستمر الوجود الموضوعي ويتطور بسنن الله وضمن دائرة المعرفة الإلهية التي هي السمع والبصر.

أما ارتباط فعل [يعلم] بالسلوك الإنساني الواعي فقد جاءت عشرات النصوص القرآنية بهذا الصدد نحو قوله تعالى:

---

٥ ـ الرعد ـ ٨

١ ـ ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[٦].

٢ ـ ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾[٧]

٣ ـ ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾[٨].

٤ ـ ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾[٩].

٥ ـ ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾[١٠]

٦ ـ ﴿قل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾[١١].

٧ ـ ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾[١٢].

٨ ـ ﴿يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور﴾[١٣].

٩ ـ ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾[١٤].

١٠ ـ ﴿وماتفعلوا من خير يعلمه الله﴾[١٥].

١١ ـ ﴿يعلم ماتكسب كل نفس﴾[١٦].

---

٦ ـ العنكبوت ـ ٣

٧ ـ آل عمران ـ ١٤٢

٨ ـ الأنفال ـ ٧٠

٩ ـ التوبة ـ ١٦

١٠ ـ يونس ـ ١٤

١١ ـ التوبة ـ ١٠٥

١٢ ـ العلق ـ ١٤

١٣ ـ غافر ـ ١٩

١٤ ـ المجادلة ـ ١

١٥ ـ البقرة ـ ١٩٧

١٦ ـ الرعد ـ ٤٢

١٢ ـ ﴿ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾[١٧].

١٣ ـ ﴿والله بما تعملون بصير﴾[١٨].

١٤ ـ ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾[١٩].

١٥ ـ ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه . . ﴾[٢٠].

١٦ ـ ﴿وماجعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . . ﴾[٢١]

لاحظ أفعال المضارعة [يعلم ـ يسمع ـ يرى ـ ننظر . .] كلها ندل على الحدوث في الزمن الحاضر مع الاستمرار للفعل، وهذه الأفعال كلها تحدث في دائرة عالم الشهادة ضمن السمع والبصر الإلهي، فالسمع والبصر للظواهر الطبيعية الجزئية، والسلوك الواعي لاعلاقة له بالعلم الأزلي السنني، وإنما علاقته بصفة العلم الفعلي [علم ويعلم].

مما يدل على أن قبل وجود هذه الظواهر الطبيعبة الجزئية والسلوك الواعي لا وجود لهذه الصفة المتعلقة بالخلق، وإنما الوجود هو للصفه الذاتية العليم كصفة الله السميع البصير. فقبل وجود الأشياء لا يوجد فعل يسمع ويرى المتعلق بالخلق، وإنما الوجود هو لصفة الله الذاتية السميع البصير.

وهذا القسم من العلم الذي أطلق عليه القرآن عالم الشهادة أطلق عليه بعض الباحثين: علم الرصد الإلهي. وقصد به رصد ومتابعة ومراقبة الأحداث من الذرة إلى المجرة بشكل إحاطي إحصائي.

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافي السموات

---

١٧ ـ الأنعام ـ ٦٠

١٨ ـ آل عمران ـ ١٥٦

١٩ ـ المائدة ـ ١١٦

٢٠ ـ ق ـ ١٦

٢١ ـ البقرة ـ ١٤٣

ومـافي الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطـون بشيء من علمـه إلا بما شاء، وسـع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظـهـما وهـو العلي العظيم﴾[٢٢]. ﴿إن الله لايخفى عليـه شيء في الأرض ولا في السماء. . ﴾[٢٣].

وهذا الوجود الموضوعي قائم على سنن كلية ثابتة لاتتغير أبداً نحو: سنة الحركة بشكل طواف. قال تعالى: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾[٢٤].

وسنة الإزدواجية، قال تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾[٢٥].

وسنـة جعـل الحيـاة مرتبطـة بالمـاء، قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[٢٦].

أمـا السنن الجـزئية سواء المتعلقة بالسلوك الإنساني الواعي، أو السلوك البهيمي الغريزي. فهي متداخلة ببعضها وتؤثر في بعضها استمراراً أو تعطيلاً نحـو: سقـوط الأوراق، وأكـل الحشـائش أو الثمـر من قبـل الكـائنات الحية البهيمية والطيور وغيرها، أو قتل الناس لبعضهم بعضاً. . .

كما أن الإنسان يؤثر بسلوكه الواعي في السنن الجزئية للطبيعة سواء في حال الإصـلاح أو الإفسـاد البيئي نحو: ثقب الأوزون، وتلويث المياه، ودفن المخلفات الكيميائية في التربة، أو رميها في البحر، وقتل الكائنات البحرية. . الـخ. وكل ذلك مشاهد في حياتنا اليومية على الصعيد العالمي. قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾[٢٧].

---

٢٢ ـ البقرة ـ

٢٣ ـ آل عمران ـ ٥

٢٤ ـ الأنبياء ـ ٣٣

٢٥ ـ الذاريات ـ ٤٩

٢٦ ـ الأنبياء ـ ٣٠

٢٧ ـ الروم ـ ٤١

والإنسـان قادر على أن يتـدخـل في السن الجـزئيه الطبيعية من خلال اكتشاف السنن فيسيطر عليها ويسخرها لمصلحته، كأن يخرج الفواكه في غير موسمهـا، أو البقـول، أو يخرج نبـات لم يكن له وجـود سابقا، ولولا تدخله لما خرج إلى حيـز الـوجـود، نحـو أن يطعّم شجـرة المشمش بصنف آخر فتخرج شجرة تحمل صنفين معاً حلواً وحامضاً بنفس الوقت، وهذا معروف في علم النبات.

كما أن الإنسان قادر على التدخل بسنن الأنفس على الصعيد الفردي والاجتماعي فيقوم بتسريع الأحداث، أو توقيفها، أو جعلها لمصلحته.

قال تعالى: ﴿إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٢٨].

فهـذه الآيـة هي قانـون تغيـير المجتمعـات. فكـل مجتمع أراد أن يغير مابنفسه من الذل والظلم الجهل.. الخ، فعليه أن يغير مفاهيمه السائدة التي تحكمه، وإيجاد مفاهيم أخرى لتحل محل الأولى[٢٩].

فالسلوك الاجتـماعي الـواعي يحدد مآل الحدث في الواقع خيراً أو شراً، والسنن الفـرديـة المتعلقـة بالنفس متقـاطعـة مع السنن الاجتـماعيـة، كما أنهما متقاطعين مع السنن الجزئية الطبيعية، ومتداخلين فيما بينهم، وبالنتيجة كلهم متأثـرين بإرادة الإنسـان الـواعي، والله يتـدخـل في هذه الأحداث الجزئية إما تسريعاً أو إبطاء، ثواباً أو عقاباً للمجتمعات الإنسانية بناء على سلوكهم. قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم﴾[٣٠]. وقـال: ﴿استغفـروا ربكم إنـه كان غفـاراً، يرسـل السـماء

---

٢٨ ـ الرعد ـ ١١

٢٩ ـ راجع ـ حتى يغيروا مابأنفسهم ـ للأستاذ جودت سعيد.

٣٠ ـ الأنفال ـ ٥٣

عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . . ﴾[٣١] .

فصلاح البيئة واستمرارها أمر مرتبط بسلوك الإنسان الواعي . كما أن صلاح المجتمعات ونشر العدل والسلام أمر مرتبط بسلوك الإنسان الواعي ، وهذا ماتعنيه كلمة أن الإنسان خليفة في الأرض . فلذا يجب على هذا الخليفة أن يكون صالحاً عادلاً يتقي الله ربه في نفسه ومجتمعه وبيئته .

وهذا العلم الفعلي لعالم الشهادة يستخدمه الله سبحانه وتعالى في كشف أحداث اجتماعية ، وأخرى سننية جزئية ، المتعلقة بسلوك الإنسان من خلال استقراء الواقع المشاهد المرصود بشكل إحصائي . وقد عبر الله عن ذلك العلم الكاشف، أوعلم الاستقراء بكلمة [عَلِمَ]، فقال : ﴿لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾[٣٢] .

وقال : ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لاتواعدوهن سراً﴾[٣٣] .

وقال : ﴿علم أن سيكون منكم مرضاً وآخرون يضربون في الأرض . . ﴾[٣٤] .

وقال : ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾[٣٥] .

وقال : ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾[٣٦] .

والملاحظ بصفة العلم الكاشف من خلال الآيات المذكورة أنها مرتبطة

---

٣١ ـ نوح ـ ١٠ ـ ١٢

٣٢ ـ الأنفال ـ ٢٣

٣٣ ـ البقرة ـ ٢٣٥

٣٤ ـ المزمل ـ ٢٠

٣٥ ـ الروم ـ ٢ ـ ٣

٣٦ ـ هود ـ ٣٦

بالواقع، فلا كشف أو استقراء دون واقع مشاهد يوظف ويستخدم في استقراء أحداث مستقبلية، التي هي امتداد لأحداث الحاضر. والملاحظ أيضاً من خلال هذه الآيات أن عملية الاستقراء محصورة فيما يتعلق بسنن الأنفس، والسنن الجزئية للطبيعة وتأثير السلوك الإنساني الواعي فيهما مستقبلاً. بينما لا يوجد استقراء للسنن الكلية الكونية لأنها تسير بحسب مارسم الله لها مسبقاً، فلا تخرج عن طريقها. ولا تحيد قيد أنملة عنه.

الباب الخامس

علم الإنسان وحريته

١ ـ علم الله وعلم الإنسان .
٢ ـ علم الله وحرية الإنسان .

علم الله وعلم الإنسان

لقد عرفنا أن علم الله تجريدي وهو علم ذاتي ، بينما الإنسان علمه فؤادي فيتعلم من خلال حواسه الخمسة ، فإذا أراد معرفة الأصوات فلا بد له من الاستماع لها ، وعملية الاستماع لابد لها من حاسة السمع ، وماينطبق على معرفة الأصوات ينطبق على كل شيء بالنسبة للإنسان ، فحواسه هي بمثابة نافذة يطل من خلالها على العالم الخارجي ، لذا فعلمه إكتسابي يكتسبه من المحيط حوله ، فالإنسان متعلم والله عالم ، وعلم الله ذاتي تجريدي ، وعلم الإنسان اكتسابي فؤادي ، وعلم الله أزلي شمولي ، بينما علم الإنسان جزئي ومحدود ، استقراء الله للأحداث قطعي ، بينما استقراء الإنسان للأحداث ظني .

فالإنسان بما منحه الله من إرادة وقدرة على تحصيل العلم ، وبما استخلفه في الأرض ، قادر على معرفة شيء من علم الله ، كمعرفة الغيب الماضي من خلال عملية التنقيب ، والحفر عن الآثار ، فيعرف بعض أخبار الماضي وقصصهم ، ويكون ذلك بإذن الله عز وجل .

وكما أنه يستطيع معرفة بعض الغيب في الواقع الحالي من خلال أجهزة الاستشعار عن بعد في الفضاء والأرض التي هي استخدام لسنن الله

الموضوعية في الوجود، فيسمع ويرى مايحصل في العالم الغائب عنه، ومعرفة بعض ما يجري في المستقبل من أحداث كونية كنزول المطر، وزلزلة الأرض، وغير ذلك من معرفة مدار بعض النجوم، ومتى تظهر لنا مرة ثانية في السماء كمذنب هالي، وكل ذلك إنما هو بإذن الله الذي استخلف الإنسان في الأرض، وملكه إمكانية معرفة السنن والقوانين التي تحكم الوجود. وبالتالي معرفة بعض مايحصل غداً من الأحداث الكونية ولو بشكل جزئي أو ظني حسب المعلومات التي عند الإنسان، ويكون كل ذلك بمشيئة الله، كما قال: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[1]. فكون الله عالم الغيب والشهادة لا يعني أن الإنسان لايعلم شيئاً أبداً من الغيب أو الشهادة، فكما قلنا سابقاً المنفي عن الإنسان هو العلم المطلق الشامل للوجود بشكل احصائي، والعلم المطلق لما يحدث في عالم الشهادة، ولكن العلم الجزئي المحدود للوجود ممكن للإنسان، وكذلك معرفة عالم الشهادة بشكل جزئي غير احصائي أيضاً ممكن، وكذلك معرفة بعض الأحداث السننية المستقبلية ممكن أيضاً، وكذلك الاستقراء لأحداث سلوكية للإنسان الواعي في المستقبل أيضاً ممكن، وهذا لايعني أن الإنسان أصبح له وجود مستقل وعلم مطلق أو بعبارة ثانية شريك لله، وإنما الإنسان كرمه الله بأن نفخ فيه الروح، وأسجد له ملائكته، واستخلفه في الأرض، وملكه إمكانية معرفة سنن وقوانين الوجود، وسخر له بذلك الكون من خلال استعمال أوامر الله التي هي سنن وقوانين الوجود بالنسبة للأشياء التي لاتملك إرادة. فخليفة الله في الأرض هو الإنسان الذي إستطاع السيطرة والتسخير للوجود من خلال معرفة السنن والقوانين لخدمته الذاتية قال تعالى: ﴿سخر لكم مافي السموات وما في الأرض﴾[2]، والسخرة

---

١ ـ البقرة ـ

٢ ـ لقمان ـ ٢٠

هي الخـدمـة المجـانيـة الإجبـاريـة. وقال أيضاً: ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[٣].

لاحـظ كلمـة (مسخـرات بأمره) أي بالسنن الني وضعها الله في الشيء فمن اكتشف هذه السـنن يتسخـر له الشيء حتـماً بإذن الله، فهذا هوالإنسان المستخلف في الأرض.

---

٣ ـ النحل ـ ١٢

علـم الله وحـريــة الإنســـان

إن هذا البحث هو ثمرة مامرَّ معنا من بحوث، وهو الناحية العملية، له لذا يجب توخي الحذر في استعمال الألفاظ وعدم تحميلها مالم يرد منها أو يقصد، واستصحاب ماأثبتناه آنفاً من مفاهيم والانتباه إلى عدم تصادم أو إلغاء بعض المفـاهيم على حسـاب مفـاهيم أخرى، والعمدة في ذلك البحث كما كررنا في أكثـر من مكـان في الكتاب هو عالم الشهادة، وإذا ظهر تعارض بشكل أو بآخر بين عالم الشهادة وظاهر النص يجب تأويله حسب أوجهه اللغوية المحتملة التي تقـر عالم الشهـادة، لأن عالم الشهـادة هو فعل الله، والنص وحي الله، والفعل أبين وأصرح من النص فضلاً عن أن النص محله هو الواقع.

فمن المفـاهيم الثـابتة في عالم الشهادة هو حرية الإنسان واختياره. فكل إنسان عاقل يدرك ذلك من خلال المشاهدة والشعور اليقيني بحريته واختياره، فيستطيـع الإنســان أن يرفـع يده بملىء إرادته، كما أنه يستطيع أن لا يرفعها، وهذه الصفة هي شيء لازم لإنسانيته، فإذا انتفت عن الإنسان انتفت صفته الإنسـانيـة وهبـط إلى المستـوى البهيمي لا رأي له ولا موقف تجاه الأحداث، ويصبح وجوده وجود فيزيولوجي فقط!

والله خلق من كل شيء زوجـين النفي والإثبـات، والهدى والضلال، والحـلال والحـرام، والإيـمان والكفـر، وهـذا مقتضى لا إلـه إلا الله وهـو نفي

الإزدواجية عن الله لأنه هو فقط الواحد الأحد، وعلى الإنسان أن يختار ويحدد موقفه.

وجميع الأديان السماوية قد قررت هذه الحقيقة من خلال تكليف الإنسان بأوامر ونواهي، وجعله مسؤولاً عن أعماله الواعية. قال تعالى:

﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾[1].

﴿لا إكراه في الدين﴾[2].

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[3].

﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾[4].

﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾[5].

﴿كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾[6].

فالإنسان العاقل كائن مكلف مسؤول عن أعماله الواعية تجاه أمته وتجاه ربه. أي في الدنيا والآخرة. والحياة الدنيا بالنسبة للإنسان الواعي هي دار ابتلاء، أي دار إقامة مؤقتة، فلذا يجب أن يملك أو يسعى لإمتلاك مايصلح هذه الدار للإقامة المؤقتة له ولمن بعده، والمحور الذي ينطلق منه في هذه الدار هو مفهوم الإبتلاء والامتحان والنظر إلى المآل الذي هو الآخرة التي هي دار الحساب والاستقرار ﴿والآخرة خير وأبقى﴾[7].

فبعد إقرار حرية الإنسان من خلال عالم الشهادة، نبحث في مفهوم

---

١ - الملك - ٢

٢ - البقرة - ٢٥٦

٣ - الكهف - ٢٩

٤ - الصافات - ٢٤

٥ - الحجر - ٩٢

٦ - الاسراء - ٣٦

٧ - الأعلى - ١٧

علم الله وعلاقته بحرية الإنسان . فالملاحظ عند غالب العلماء والدراسات أن مسألة حرية الاختيار عند الإنسان شيء مسلم به وليس هو بمحل خلاف وإنما الخلاف نتج في علاقة مفهوم علم الله وحرية الإنسان ، فقالوا جميعاً : أن علم الله هو علم ذاتي أزلي وهو محتوي ومتناول حال الخلق كلهم منذ البدء إلى المآل ، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ . فأصحاب الجنة إلى الجنة ، وأصحاب النار إلى النار. لا يزيدون ولا ينقصون . والسعيد من كتب له السعادة في بطن أمه ، والشقي من كتب له الشقاء في بطن أمه ! !

وسأناقش بعض النصوص لأكثر الكتب انتشاراً في هذا الصدد وكيف عالجت هذه العلاقة بين مفهوم علم الله وحرية الإنسان ، محاولة إزالة الإشكال الكبير والتصادم الذي حصل بين المفهومين الذي سبب شرخاً كبيراً في عقيدة المسلمين ، وأدى إلى الانفصام بين السلوك والفطرة . وأصبح مفهوم علم الله كالمشجب يعلق عليه كل مصائبنا وفشلنا وجهلنا وذلنا وفقرنا . . الخ .

لقد ورد في كتاب [نظام الإسلام][8] في فصل القضاء والقدر علاجاً لهذه المسألة مع الأخذ بعين الاعتبار أن كلمتي القضاء والقدر هما إصطلاحاً يقصد به [حرية الإنسان] مايلي : [والمدقق في مسألة القضاء والقدر - حرية الإنسان - يجد أن دقة البحث فيها توجب معرفة الأساس الذي ينبغي عليه البحث ، وهذا الأساس ليس هو فعل العبد من كونه هو الذي يخلقه أم الله تعالى . وليس هو علم الله تعالى من كونه يعلم أن العبد سيفعل كذا ويحيط علمه به ، وليس هو إرادة الله تعالى من أن إرادته تعلقت بفعل العبد فهو لابد موجود بهذه الإرادة ، وليس هو كون هذا الفعل للعبد مكتوباً في اللوح المحفوظ فلابد أن يقوم به وفق ماهو مكتوب .

نعم ليس الأساس الذي ينبغي عليه البحث هو هذه الأشياء مطلقاً لأنه

---

٨ - للشيخ تقي الدين النبهاني رحمه الله

لاعلاقة لها في الموضوع من حيث الثواب والعقاب بل علاقتها من حيث الإيجاد والعلم المحيط بكل شيء والإرادة التي تتعلق بجميع الممكنات واحتواء اللوح المحفوظ على كل شيء. وهذه العلاقة موضوع آخر منفصل عن موضوع الإثابة والعقاب عليه. أي هل الإنسان ملزم على القيام بالفعل أو تركه، أو مخير فيه؟ وهل له اختيار أم ليس له الاختيار؟].

إلى أن قال: [أما علم الله تعالى فإنه لايجبر العبد على القيام بالعمل لأن الله علم أنه سيقوم بالعمل مختاراً، ولم يكن قيامه بالعمل بناء على العلم بل كان العلم الأزلي أنه سيقوم بالعمل. وليست الكتابة في اللوح المحفوظ إلا تعبيراً عن إحاطة علم الله بكل شيء][9].

وقال أيضاً: [وأما إرادة الله فإنها كذلك لاتجبر العبد على العمل، بل هي آتية من حيث أنه لايقع في ملكه إلا مايريد: أي لايقع شيء في الوجود جبراً عنه. فإذا عمل العبد عملاً ولم يمنعه الله منه ولم يرغمه عليه بل تركه يفعل مختاراً، كان فعله هذا بإرادة الله تعالى لاجبراً عنه، وكان فعل العبد نفسه باختياره وكانت الإرادة غير مجبرة على العمل][10].

فالمدقق في النص الأول المذكور آنفاً يجد صراحة أنه يطالب بفصل مفهوم حرية الإنسان عن مفهوم علم الله وإرادته والكتابة باللوح المحفوظ، وأن لكل منهما مجال. فمسألة حرية الإنسان هي مسألة تخضع للثواب والعقاب، فكل أمر ترتب عليه ثواب أوعقاب فالإنسان مخير فيه ويملك الحرية على اختيار الفعل بنفسه دون أي مؤثر خارجي غيبي، أما مسألة علم الله فهي مسألة إيمانية نقلية محلها القلب، وبالتالي فيجب التسليم بالنصوص وعدم اقحامها بمسألة الحرية واختيار الإنسان.

ولكن نلاحظ أنه قد رجع إلى مفهوم علم الله وإرادته معترفاً ضمناً

---

٩ - نفس المصدر المذكور ص ١٨.

١٠ - نفس المصدر ص ١٨

بوجود علاقة بين مفهوم علم الله ومفهوم حرية الإنسان، وذلك عندما قال في النص الثاني: [أما علم الله فإنه لايجبر العبد على القيام بالعمل..].

وكذلك بالنسبة لمفهوم إرادة الله فقد قال: [أما إرادة الله فإنها كذلك لاتجبر العبد على العمل...].

وهذا الرجوع والتعليق دليل على أن الإشكال مازال قائماً بين المفهومين، والمطالبة بفصلهما عن بعض ودراسة كل واحد على حدة لن ينفي وجود التصادم بينهما، لذلك نجده صراحة يطالب بالفصل بينهما لإزالة التصادم ولو أنه لم يستطع ذلك هو نفسه عندما رجع وعقب على قوله الأول بما ذكرناه آنفاً.

أما قوله: [أن الله علم أنه سيقوم بالعمل مختاراً، ولم يكن قيامه بالعمل بناء على العلم، بل كان العلم الأزلي أنه سيقوم بالعمل..].

فحقيقة هذا القول هو: أن علم الله تعلق بإختيار الإنسان منذ الأزل تعلق كشف وإطلاع، فعلم مصير الخلق جميعاً وما سوف يختارون في المستقبل، ومن ثم كتب ذلك في اللوح المحفوظ ولن يختلف المقدور عن المكتوب لأن الكتابة كانت وفق المعلوم، وهي كتابة علم واطلاع بالنسبة لمصير الناس في الجنة أو في النار، وليست كتابة قهر وإجبار، وبالتالي فعلم الله سابق وليس سائق[11].

وهذه المقولة باطلة من عدة أوجه:

أولاً: إن تعلق علم الله الأزلي باختيار الناس قبل أن تتوجه إرادة الله الحادثة نحو الخلق يلزم منه وجود نماذج وصور للخلق في علم الله الأزلي وهذا باطل من أوجه:

آ ـ وجود النماذج والصور في العلم الأزلي يعني تعدد الجهة الأزلية، وهذا باطل، لأن الجهة الأزلية لاتتعدد.

---

١١ ـ راجع كتب العقيدة.

ب - وجود النماذج والصور في العلم الأزلي يعني أن الله في حالة تصور أزلي للخلق، وهذا باطل، لأن الله عنده الإرادة والتصور والخلق هم بمرتبة واحدة [إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون] أي تطابق التصور مع الفعل.

ت - وجود النماذج والصور في العلم الأزلي يلزم منه وجود سابق للصور والنماذج في الإرادة بشكل أزلي لأن التصوير والتحديد وإيجاد النماذج هي وظيفة الإرادة وليس العلم، مما يدل على بطلان قولهم وجود مصير الناس بالعلم الأزلي.

ث - أما افتراض وجود مصير الناس في إرادة الله أزلاً فأيضاً باطل، لأنه يلزم التصور الأزلي للخلق، وتعدد الجهات الأزلية.

ج - وجود النماذج والصور في العلم الأزلي يعني أن علم الله قائم على النماذج والصور، وهذه النماذج قطعاً محدودة لأنها للخلق مما يعني أن علم الله محدود، وهذا باطل، لأن علم الله غير محدود.

ح - وجود النماذج في العلم الأزلي يعني قصور في العلم على هذه النماذج، وبالتالي لايستطيع خلق شيء لانموذج له أزلاً، وإذا خلق شيئاً لانموذج له أزلاً، سقط كلامهم، وظهر بطلانه، وهو قطعاً باطل، لأن الله على كل شيء ممكن قدير وبكل شيء هو عليم.

ثانياً: قولهم أن الله تعلق علمه بالخلق بواسطة الكشف والاطلاع أيضاً باطل من أوجه:

آ - مما يدل على بطلان قولهم هذا هو قولهم السابق: بأن علم الله متعلق بمصير الخلق أزلاً، فإذا كان الأمر كذلك كيف قالوا: تعلق انكشاف واطلاع؟! مع العلم أن الكشف هو فعل له بداية وليس أزلي، فوقعوا في التناقض. وهذا القول الأخير أي علم الله الكاشف هو هروب من مايلزم من قولهم الأول: أن علم الله متعلق بالخلق أزلاً، لأن ذلك يعني

أن الإنسـان مجبـور وليس له من الأمـر شيئاً، وإنما هو صورة لتنفيذ علم الله الأزلي، فاضطـروا أن يقـولـوا بعلم الله الكـاشف حتى يثبتوا حريه الاختيار عند الإنسان، فوقعوا في هذا التناقض العجيب!.

ب ـ وباطل هذا القول أيضاً، لأن من المعلوم أن عملية الكشف لابد لها من واقـع مشـاهـد يتم استقـراءه، وبـالتـالي يتم الكشف عن أحـداث المستقبل، فلا كشف دون واقع مشاهد كما قررنا ذلك سابقاً.

ت ـ وباطل قولهم السابق بالكشف على المستقبل لأنه لاوجود للحاضر حتى يكـون هنـاك مسـتـقبـلاً. فيلزم من قولهم أن الله اطلع وكشف على اللاشيء فعلم منه شيئاً، وهذا سفسطة وهراء، لأن اللاشيء ليس هو محل لظهور شيء.

ثالثاً: مما يدل على بطلان قولهم السابق هو شعورهم بالتناقض المنطقي لكـلامهم نفسـه. فلذلـك حاولـوا التلفيق والتـوفيق بين المتنـاقضات المنطقية بفصلها عن بعضها ودراسة كل مسألة بشكل منفرد، ومن ثم تجميعها في قول واحد، وإعطائها للأمة على أساس أنها القول الفصل المقطوع بصحته وغير قابـل للنقـاش أبـداً. نحـو قولهم: [أن علم الله تعلق بمصـير الخلق أزلاً]، وقولهم [علم ماسوف يختار الناس]. فإذا كانت الجملة الأولى صحيحة فيعني أن الناس مجبورين والجملة الثانية خطأ.

وإذا كانت الجملة الثانيه صحيحة فيعني أن الأولى خطأ. فتأمل!

لو كان الـعـلم الأزلي متـعـلق بمصـير الخلق، لانتفى الاختيـار عن النـاس، ولانتفى قولهم: أن الله علم ماسـوف يختـارون، لأن ذلـك محدث لاشـك فيـه. وإذا لم يتعلق العلم الأزلي بمصـير النـاس فيعني ذلـك أنه علم تجريدي سنني استخدمه الله في إيجاد ماتعين بالإرادة الحادثة!

أمـا قولـه: [وأمـا إرادةالله فإنها كذلك لاتجبر العبد على العمل.... كان فعله هذا بإرادة الله تعالى...]، فأيضاً باطل، وذلك عندما جعل فعل

العبد بإرادة الله ، ومن المعلوم أن فعل العبد هو بمشيئة الله وليس بإرادته ، لأن الإرادة[١٢] للإيجاد وليس لها إلا وجه واحد في التطبيق فهي متعلقة بأفعال الله وليس بأفعال الإنسان . ومن هنا يظهر بطلان قوله السابق : أن إرادة الله لاتجبر العبد . بل هي تجبره ، لأن ماأراده الله كان ، ومالم يرده لم يكن [فعال لما يريد] .

هذه هي إحـــدى المحـــاولات لإزالـة الإشكـال بين مفهـوم علم الله ، ومفهوم حرية الإنسان ومحاولة التلفيق والتوفيو بينهما رغم تصادمهما الصربح ، وبـالنتيجـة لم يكتب لها النجاح رغم استمرارها فترة مى الزمن تدرس للشباب المسلم ، والشباب يقبل هذا المفهوم ، ولا يحاولون أن يُعْملوا عقلهم فيه لمنعهم من قبـل أسـاتـذتهم ، وأن هذا الأمـر خطير والخوض فيه منهي عنه ، وبالنالي فليس لكم إلا التسليم وعـدم التفكـير بالمفهـومـين معاً ، وإنما أثبتوا كل واحد على حدة ، وأغمضوا أعينكم عن التناقض بينهما ! ! .

الكتاب الثاني هو: [موقف البشر تحت سلطان القدر][١٣] ، لقد جاء فيه تحت عنـوان : المـذاهب المشهـورة في أفعـال العبـاد : مايـلي : قبل الشروع في تفصيـل المـذاهب وتمحيصهـا أريـد أن أذكـر خلاصة ماأعتقد في مسألة أفعال العباد . فمذهبي الذي أريد إثباته في هذا الكتاب : أن العباد يفعلون بإرادتهم واختيـــارهم مايـريـد الله أن يفعلوه ولايحيـدون عنـه بالنظـر إلى أنهم يفعلون مايفعلون باختيـارهم ، فهم مختـارون ، وبـالنظر إلى أنهم لايختارون إلاماأراد الله أن يختــاروه ، ولايحيـدون عنـه ، فهم مجبـورون أوكأنهم مجبـورون . وإني لاأقـول كما قال بعض الأئمـة واختـاره المحققون ، لاجبر لا تفويض ولكن أمر بين أمرين ، بل أقول جبر وتمويض معاً جبر يفتر ق عن الجبر لعدم مصادمته لإرادة المجبـور، وتفـويض يفـتر ق عن التفويض لعدم احتيار المفوص إليه إلا

---

١٢ ـ راجع فصل الإرادة والمشيئة من نفس الكتاب

١٣ ـ للشيخ مصطفى صبر ي مفتي الدولة العثمانية شيخ الإسلام .

ماأراده المفوض، فالإنسان يفعل مايشاء ولايشاء إلا مايشاء الله أن يشاءه، فهو يفعل مايشاء الله ويشاء هو نفسه معاً. فهناك تفويض لأنه هناك مايشاء وهناك جبر أو ماشبهه، لأنه لايفعل غير مايشاء الله، وهذا الجمع بين المجبر والتفويض، والتسيير والتخيير، من خواص قدرة الله تعالى لايقدر عليه جبار غيره. فإن عدَّ الإنسان بموقفه هذا مجبورا في أعماله فهو مجبور ولكنه مجبور غير معذور!! ومذهبي هذا بكلا ركنيه يشتمل عليه قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما تعملون﴾.

وقال في موضع آخر من كتابه: [إن سأل سائل كيف يكون هذا؟!

نقول له: هذا سر القدر [ولايسأل عما يفعل]، [وفعال لما يريد]. انتهى.

فالدارس للنص يجد أن المفهوم موجود مسبقا والكتاب لإثباته وذلك بقوله: [فمذهبي الذي أريد اثباته في هذا الكتاب]، فليس هو بحث موضوعي ينطلق من الواقع ومن النصوص القطعية. أما الجانب الآخر: فهو خلطه بين الإراده والمشيئه، وذلك عندما قال: [أن العباد يفعلون بإرادتهم واختيارهم مايريد الله أن يفعلوه]، ومن المعلوم أن إراده الله لفعله وليس لفعل الإنسان، لأن فعل الإنسان ناتج عن إرادته هو وليس عن إرادة الله، وإنما يحدث ذلك بمشيئة الله.

ـ والجانب الثالث: لقد جعل الإنسان مجبورا وبنفس الوقت غير معذور ومحاسب عن أعماله، وهاتان النتيجتان متناقضتان في واقع الحال. فطلب من القارىء أن لايعمل عقله أو يسأل كيف يكون هذا، وأعطاه جواباً ظنه مسكتاً عندما قال: [هذا سر القدر ولايسأل عما يفعل].

ـ الجانب الرابع: جعل ذلك المفهوم الغامض من خواص قدرة الله،

وهذا ناتج عن جهل بصفات الله ، وظن أن وصف الله بذلك هو إثبات الكمال المطلق لصفة القدرة، وفاته أنه نفى الحكمة والعدل عن الله سبحانه وتعالى .

إلى غير ذلــك من التنـاقضـات المـوجـودة في النص التي لاتخفى على القارىء اللبيب .

أمـا الشيعـة : فقـد اخـترعـوا نظرية انفردوا بها أطلقوا عليها : (نظرية البِدَاء) . ولم يقصـدوا بهذه الكلمـة (بـدا) معنـاهـا اللغوي الذي هو بمعنى (ظهـر) لأن الله لايظهـر له شيء لأنه لايخفى عليه شيء أصلا . وإنما المراد أن الأمر يحدث في الوجود بمنحى معين فيظن الإنسان أن مآل هذا الأمر هو كذا . وإذا به يتفاجأ في تغير هذا المآل إلى منحى آخر، فيقول بدا لله في هدا الأمر أن يكون كذلك لحكمة رآها وضربوا مثلاً على ذلك هو: أن الإمامة تكون للإبن الأكـبر للإمـام وهنـاك إمام مات ابنه الأكبر في حياته ، وكان الناس يظنون أنه الإمـام بعـد أبيـه ، فعندما مات في حياة أبيه وانتقلت الإمامة إلى الابن الثاني للإمام . قالوا : بدا لله في ذلك حكمة فغير الإمامة من الإبن الأول إلى الثاني وهذا كان غائباً عن الخلق فظهر إلى الواقع بعد أن لم يكن ظاهراً[١٤] .

وهـذه النظـريـة لاأريـد أن أعلق عليهـا ، وإنـما أتـركها للأخ القارىء ليقلبها من عدة أوجه ويرى نصيبها من الصواب حسب ماأثبتناه آنفاً من مفاهيم ! .

ـ أمـا كتـاب (شـرح جوهـرة التـوحيـد)[١٥] : فهو كتاب ذائع الصيت ، يُدَرَّس في معظم المعـاهـد الشـرعية ، ويحفظ الطلبة منظومة جوهره التوحيد[١٦] عن ظهـر قـلب . يقـول الشـارح تحت عبارة : [وعلمه ولايقال مكتسب فاتبع سبيل الحق واطرح الريب] .

١٤ ـ راجع في هذا الصدد مؤلفات الشيخ جعفر السبحاني .

١٥ ـ الباجوري .

١٦ ـ اللقاني .

وعلمه: أي واجب له علمه، وهو صفة أزلية متعلقة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات تعلق إنكشاف على وجه الإحاطة على ماهي به من غير سبق خفاء، وبعلق العلم تعلق تنجيزي قديم، فيعلم الله سبحانه وتعالى الأشياء أزلاً على ماهي عليه . . . [إلى أن قال]: وماورد مما يوهم اكتساب علمه تعالى فمؤول كقوله تعالى. [ثم بعثناهم لِنَعْلَمَ أي الحزبين أحصى]. فالمراد والله أعلم ثم بعثناهم ليظهر هم متعلق علمنا فيكون لِنعْلَمَ بمعنى لِنُعْلِم، فاللام للعاقبة.

- أما كتاب شرح العقيدة الطحاويه[17] وهو من أعظم الكتب المعتمدة عند السلفيين، وقد حظي بخدمة علمية كبيرة من جماعة من العلماء، وحققه الشيخ الألباني، وغيره، ويدرس في بعض المعاهد الشرعيه، ويدرس في الجامعات السعودية، فلقد قال الشارح تعليقاً على عبارة الطحاوي: [والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق].

قد وردت أحاديث في أخذ الدرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين، وإلى أصحاب الشمال، وفي بعضها إشهاد عليهم بأن الله ربهم [وساق عدة أحاديث]. ثم قال: فالآثار المروية في ذلك إنما تدل على القدر السابق، وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وذكر الإمام الطحاوي في المتن عبارة: [وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار، جملة واحدة فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه. فعلق الألباني في كتابه[18] عليها فقال: [يشير المؤلف رحمه الله إلى حديث عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: أتدرون ماهذا الكتابان؟ فقلنا: لا يارسول الله إلا أن

---

١٧ - ابن عز الدين الحنفي

١٨ - العقيدة الطحاوية شرح وتعليق.

تخبرنا، فقال الذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. فقال أصحابه: ففيم العمل إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل. وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أي عمل. ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما ثم قال فرغ ربكم من العباد(فريق في الجنة وفريق في السعير)[١٩].

فهذان الكتابان شرح جوهرة التوحيد وشرح الطحاوية هما أكثر الكتب إنتشاراً، رغم وجود الخلاف في منهجية كل منهما. إلا أن مسألة مفهوم علم الله محل اتفاق بينهما وما قرره هذان الكتابان هو عقيدة جمهور المسلمين في شرق الأرض وغربها. وهذا واضح في حياتهم المعيشية وأقوالهم التي يرددوها لتبرير الأخطاء التي يقعون بها نحو قولهم: ليس بالإمكان أحسن مما كان وقولهم: المكتوب على الجبين لازم تراه العين. وقولهم: المكتوب مافي منه مهروب. وقولهم: قسمة ونصيب كل واحد بأخذ نصيبه... الخ!!!.

والملاحظ من خلال تحليل مفهوم علم الله في الكتابين المذكورين أنهما وقعا في خمسة أخطاء أدت بهم إلى ما وصلا إليه. وهذه الأخطاء هي:

١ ـ عدم الاعتماد على القرآن أو النص القطعي.

٢ ـ خلطهم بين صفة علم الله الأزلي والإرادة الحادثة.

٣ ـ الغلو بتنزيه الله أوقعهم بوصفه بأشياء لاتكون.

٤ ـ قولهم أن علم الله هو علم كشف واطلاع رغم عدم وجود واقع.

٥ ـ خلطهم بين صفة العلم الأرلية، وصفة العلم الفعلية.

١٩ ـ أخرجه الترمذي وصححه هو وغيره. وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٨٤٨)

ولنناقش هذه الأخطاء الخمسه

١ - عدم الاعتماد على القرآن أو النص القطعي .

إن كل من يفتح كتاب عقيده على فصل علم الله أو القدر يجد أن البحث غير موضوعي ، وإنما هو لتقرير عقيدة موجودة مسبقاً ، والبحث هو لإثباتها نحو بحث الشيخ مصطفى صبري بيد أن الشيخ صبري صرح بذلك ، ولكن لم يصرح به علماؤ نا ، بل لسان حال البحث ينطق بذلك وإذا استشهدوا ببعض الآيات فيختارون منها ماقد يفيد ظاهرها ماذهبوا إليه من عقيدة ، أما الآيات الصريحة التي تنص على عكس مفهومهم وهي بالعشرات كما ذكرنا ذلك سابقا . فيعطلونها ويجمدوها ويخرجونها من دلالتها إلى معنى لاتحتمله ولا بأي شيء نحو قول الباجوري : على قوله تعالى : ﴿لنعلم أي الحزبين أحصى﴾ قال المراد : لِنُعْلِمَ ! !

وقول ابن عز الدين الحنفي في شرحه للطحاوية على قوله تعالى : ﴿مايعمر من معمر أو ينقص من عمره . .﴾ قال : الهاء من عمره عائدة على رجل آخر غير الأول . وذلك حتى ينكر أن مسألة زيادة العمر أو نقصانه أمر أقر به القرآن وهو تحت متناول كل إنسان . فقال : نحو أن يقول القائل معي درهم ونصفه . فالهاء عائدة إلى غير الدرهم المذكور بالكلام وكل ذلك إنما هو لوجود الفكرة مسبقاً . وهذه النصوص تخالف فكرتهم فلذا حملوا معول الهدم والتعطيل ، وضربوا النصوص تحت اسم التأويل الذي ليس له أي ضابط عقلي أو لغوي .

فلذلك لم يكن بحثهم أساسه القرآن أبداً ، ولم يعتمدوا عليه ، وإنما اعتمدوا على ماظنوه صواباً في عقلهم ، ووجدوا بعض الأحاديث الآحادية الظنية الثبوت تخدم فكرتهم ، فاعتمدوا عليها دليلاً ليثبتوا مفهوماً إيمانياً متعلقاً بالله . فلذا نجد الأحاديث تصدرت أبحاثهم ، والآيات القرآنية مستبعدة . وهذا ماشاهدناه في كتاب شرح الطحاوية عندما تكلم على مفهوم علم الله

بأهـل الجنـة وبأهل النار. والدليل لم يكن سوى حديث ظني قد يصححه عالم ويضعفه آخر، مع العلم أنه لو صح لن يتجاوز الظن الغالب. ومسألتنا ليست حكماً شرعياً حتى نأخذ به، وإنما مسألة إيمانية ومفهوم عقائدي خطير جدا فلا يصح الاستدلال إلا بالأدلة القطعية العقلية أو النقلية[٢٠].

فأين النص القرآني القطعي من حيث الدلالة على ماذهبوا إليه من تفاصيل.

وأين الـدليـل العقـلي الذي اعتمدوا عليه، مع العلم أن مفهومهم عن علم الله يخالف العقل والقرآن.

٢ ـ خلطهم بين صفة العلم الأزلي والإرادة الحادثة.

لقد تكلمنا عن هذا الموضوع بما فيه الكفاية، فليراجع في مكانه من الكتاب.

٣ ـ الغلو في تنزيه الله أوقعهم بوصفه بأشياء لاتكون.

إن من جراء اغتيـال العقـل وعـدم استصحـاب الثوابت أثناء الدراسه والبحث لدى المسلمـين أنهم وصفـوا الله بأشيـاءء لاتكـون. ظنا منهم أن هذا تنزيه له ووصف له بالكمال فقالوا:

أن الله قادر على كل شيء وأدخلوا في مجال القـدره ماليس منـه فقالوا: إن الله قادر على أن يـنـزل إلى السـماء الـدنيا دون أن يدخل في خلقه ودون أن يخلو العرش منه ودون أن يصبح أحد فوقه[٢١]!!

وقـالـوا أيضـاً في صفـة العلم: أن الله يعلم الـلاشيء. مع العلم أن اللاشيء ليس محلاً لظهور العلم لأنه لاشيء حتى يعلم. فلذا لايقال عن الله أنه عالم باللاشيء أو جاهل به، لأن اللاشيء ليس محلا لظهور العلم، والعلم مرتبط بالشيء ﴿وهو بكل شيء عليم﴾.

٤ ـ أن الله علم مصير الخلق عن طريق الكشف والاطلاع.

---

٢٠ ـ راجع بحث الآحاد والإجماع والنسخ للمؤلف

٢١ ـ راجع شرح حديث النزول لابن تيمية.

وهذا الخطأ أيضاً أثبتنا بطلانه فيما مضى . فليراجع في مكانه .

٥ - خلطهم بين صفة العلم الأزلية وصفة العلم الفعلية .

الملاحظ من خلال نصوص وأبحاث العلماء أنه لايوجد عندهم صفه علم فعلية ، وإنما يوجد صفة علم ذاتية أزلية فقط ، وعدم معرفتهم بهذا القسم وقعوا فيما وقعوا به من أخطاء قاتلة . فالدارس لنصوص القرآن الكريم يجد أن الصفات الذاتية لها جانب فعلي نحو صفة السميع البصير ، فهما صفات ذاتية أزلية ولهما جانب فعلي متعلق بالخلق وقبل وجود الخلق لا وجود لهذا الفعل .

انظر قوله تعالى : ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ فقبل الحوار لم يكن فعل (يسمع) موجوداً ، وإنما الموجود هو صفة السميع . وكذلك صفة البصير بقوله ﴿إني معكما أسمع وأرى﴾ . فصفة الله العليم هي صفة ذاتية أزلية وهذا العلم هو نظام معرفي تجريدي سنني كامل وشامل لكل العلوم . وعندما ابتدأ الله خلق الخلق كان ذلك باستخدام صفاته الأزلية بشكل متضامن ، أي استخدم العلم والحكمة والخبرة والقدرة حتى تم الخلق ، ولصفة العلم الأزلي جانب فعلي الذي عبر عنه القرآن بصيغة [علم ويعلم][٢٢] . وهذه الصفة الفعلية حادثة كأي صفة فعلية أخرى وحدوث الصفة الفعلية لايعني الاكتساب أبداً كما هو معلوم .

فعندما يسمع الله حوارنا لايعني أنه قبل الحوار لايسمع وإنما هو سميع بذاته ولكن لاوجود للحوار حتى يسمعه ، وكذلك صفة العلم الفعلية فهو عليم بذاته بشكل كامل وشامل ولا وجود للظواهر الطبيعية الجزئية والسلوك الإنساني الواعي حتى يعلمه . وبمجرد أن يحدث هذا في عالم الشهادة لايخفى عليه شيء منه أبداً ابتداء واستمراراً .

---

٢٢ - راجع فصل صفة علم الله الفعلية من نفس الكتاب .

الباب السادس

توضيح وشبهات

١ ـ تفسير: قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا.

٢ ـ تفسير: إن الله عنده علم الساعة . . . .

٣ ـ تفسير: يعلم مابين أيديهم وماخلفهم . .

٤ ـ تفسير: إنه يعلم السر وأخفى . . .

٥ ـ تفسير: وما منا إلا له مقام معلوم . . .

٦ ـ تفسير: ويجعلون لله مايكرهون . .

٧ ـ احاطة علم الله لاحتمالات الاختيار عند الإنسان . . .

٨ ـ الفرق بين السنن الكونية والسنن الاجتماعية . .

معنى كلمة كتب

كتب: الكـاف والتـاء والبـاء أصـل صحيح واحد يدل على جمع شيء إلى شيء[1] وصد كتب لفظاً ومعنى بتك وهي القطع والتفريق[2]، كما في الآية الكريمة ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾[3].

هذا هو المعنى اللغـوي لكلمـة كتب. فأي فعـل تحقق به ذلـك المعنى يسمى كتب. فيقـال للنـاس إذا أردتهم أن يجتمعـوا اكتتبوا. ويقال للصحف المجموع فيها الكلام كتاب، ويقال لمؤلف الكتاب كاتب أي يجمع الكلام مع بعضـه وسميت المجمـوعة من الناس كتيبه. وسمي المكان الذي يجمع عناصر وأدوات متعلقـة ببعضهـا مكتب. فنقـول مكتب المحـامي مكتب المهنـدس ومكتب الدراسات ونقول للمكان الذي فيه الكتب مكتبة. . . . الخ.

ولـذلـك أطلق علماؤ نـا على مجمـوعة الأحكام المتعلقة بموضوع واحد اسم كتـاب فقـالـوا: كتـاب الصـلاة ـ كتاب الزكاة ـ كتاب الحج . . الخ. وأطلقوا على مجموعة الكتب هذه اسم كتاب الفقه.

وبناء على ذلك المعنى اللغوي لكلمة كتب نفسر الآيات التي جاء فيها

---

١ ـ راجع مقاييس اللغة لابن فارس.

٢ ـ راجع جدلية الحرف العربي لمحمد عنبر.

٣ ـ النساء ـ ١١٩

ذكر كلمة كتب، والعمدة في ذلك هو الواقع. فإحتلاف المقصد من كلمة كتب في الآيات أمر راجع إلى اختلاف محل الخطاب ولذلك نظهر الاستخدامات لكلمة كتب مع الحفاظ على معناها الأصلي ألا وهو الجمع.

ويجب التحرر من سلطان معنى الكتابه بالقلم كلما شاهدنا كلمه كتب، لأن الكتابة بالقلم هي معنى جزئي للكلمه فيجب التجرد بشكل موضوعي لمعرفة القصد من الكلمة، وذلك بإسقاطها على الواقع المعني بالخطاب، قال تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾[4] أي فرض. وقد تم معنى الجمع حينما أضاف الله الصيام للإنسان.

قال تعالى: ﴿قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا﴾[5].

فالله تبارك وتعالى ليس عنده قرطاساً يكتب فيه، فهو مستغن عنه ومنزه عن ذلك فهنا كلمة كتب مقصود بها كتاب المصائب، وهو عبارةعن مجموعة القوانين التي إذا تعرض الأنسان إليها تصيبه بشكل حتمي لا مفر له منها أبداً. وهذا مايشهد له الواقع وكل تفسير غير ذلك يؤدي إلى انفصام في سلوك الإنسان، إذ تختلف عقيدته عن سلوكه.

قال تعالى: ﴿والله يكتب مايبيتون﴾[6] أي جامع ومطلع على مايبيتون.

قال تعالى: ﴿ماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾[7].

لفهم إذن الله نأتي بقوله تعالى: ﴿ماكان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾[8].

---

٤ ـ البقرة ـ ١٨٣
٥ ـ التوبة ـ ٥١
٦ ـ النساء ـ ٨١
٧ ـ آل عمران ـ ١٤٥
٨ ـ الأعراف ـ ١٠٠

فمن المعلوم أن الإنسان له حرية الاختيار، فسواء اختار الإيمان أو الكفر فكلاهما بإذن الله، ومن المعلوم أنه لايجري شيء في الواقع إلا بسنن وقوانين. كما قال تعالى: ﴿إنـا كل شيء خلقناه بفدر﴾[9]. واختيار الإيمان أو الكفر هو شيء خاضـع لقـوانـين وسنن، مما يدل على أن إذن الله هو قانـون الله كون الاختيـار مرتبـط به. فالإنسان يؤمن بقانون ويكفر بقانون، وقانون الإيمان هو مطابقة الأفكار للواقع المعني، فإذا تطابقت دخل الإيمان إلى القلب حتما. أما إنكـار ذلـك الإيـمان فهـو موضـوع راجـع للإرادة قال تعـالى ﴿وجحـدوا بها واستيقنتهـا أنفسهم﴾[10] فالإنسـان لايملك أن يمـع وصـول الحق إلى قلبـه ومعـرفتـه، ولكن يستطيـع أن ينكره ويغطي عليه، ولذلك سمي كافراً نرجع إلى قوله تعالى: ﴿ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾.

فكلمة كتاب: يقصد بها كتاب الموت، وكلمة إذن: يقصد بها قانون.

فلا يمـوت إنسـان إلا إذا تعـرض لقـوانـين المـوت، ومن يتعرض لهذه القوانين فالموت حق عليه لامفر منه، وهذا مايشهد له الواقع.

وكل من يفسر خلاف ذلك يلزم منه الانفصام في سلوكه![11].

---

٩ - القمر - ٤٩

١٠ - النمل - ١٤

١١ - راجع الكتاب والقرآن - د شحرور.

﴿إن الله عنده علم الساعة . . .
وما تدري نفس ماذا تكسب غدا﴾

قال تعـالى : ﴿إن الله عنـده علم السـاعـة وينـزل الغيث ويعلم مافي الأرحـام ومـاتدري نفس ماذا تكسب غداً وماتدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾[١] .

إن الـواو المـوجـودة بالآية هي واو الاستئناف وليست واو العطف كمثل قوله تعالى : ﴿لنبين لكم ونقرُّ في الأرحام مانشاء﴾[٢] . ومثل قوله تعالى : ﴿إن الله عنـده علم السـاعـة وينـزل الغيث ويعلم ما في الأرحـام . . ﴾ ، إذاً الآيـة تتكلم عن خمسة مواضيع لاعلاقة بينهم .

الموضوع الأول : يخبر الله تبارك وتعالى أن علم الساعة شيء خاص به لا أحد يعرفه .

الموضوع الثاني : يخبر الله أنه ينزل الغيث ، ولم يذكر أن علم وقت نزول الغيث هو شيء خاص به ، لذا في الـواقـع المشـاهـد نجـد أن الإنسـان يعلم بشكـل نسبي وقت نزول المطـر ويتنبأ بذلـك من خلال الأرصـاد الجـوية ، بل

---

١ - لقمان - ٣١

٢ - الحج - ٢٢

استطاع الإنسان أن ينشيء سحاباً ولوبشكل جزئي . وكل ذلك من خلال معرفة سنن الله في الوجود وتسخير الأشياء للإنسان إذا استطاع أن يكتشف قوانين الشيء.

الموضوع الثالث: يخبر الله أن ماتحمل الأنثى إنما هوبعلم الله لايغيب عنه، لذا استعمل فعل المضارع بقوله ﴿ويعلم مافي الأرحام﴾ بأن كل مايحدث في الأرحام إنما هوبعلم الشهادة لله، ولم ينف علم الإنسان عن معرفة مافي الأرحام وبالتالي يستطيع الإنسان بما استطاع من اكتشافات لسنن الوجود أن يعرف مافي الأرحام ولوبشكل نسبي وجزئي، لأن الإحاطة والعلم المطلق لايكون إلا لله حصراً.

الموضوع الرابع: يخبر الله أن الإنسان لايدري ماذا يحدث معه غداً في الوجود الموضوعي، ولو أنه قد يَهمُّ على عمل أشياء معينة ويبيت ذلك، ولكن قد تحصل ظروف قاهرة تمنع الإنسان من أن يسلك السلوك المبيت سابقاً. ونفي الدراية عن الإنسان للكسب المستقبلي لايعني نفي الدراية عن الله، ولا يعني اثباتها لأن الموضوع متعلق بكسب الإنسان وعمله وليس متعلق بفعل الله. فالله عالم بما يجري في المستقبل كما قررنا سابقاً بالنسبة للوجود الموضوعي السنني، فلا يغيب عنه شيء لأن ذلك هوعمل الله بينما الآية تتكلم عن عمل الإنسان فيجب التفريق بينهما، فما ينطبق على الأول لاينطبق على الثاني والعكس صحيح أيضاً.

الموضوع الخامس: يخبر الله أن الإنسان لايدري بأي مكان يموت، فهل يموت في بيته أم في مكان عمله أم في الطريق أم في غير بلده، وهذه الآية مثل التي قبلها تماماً، وأخيراً ختم الله المواضيع الخمسة بقوله: ﴿إن الله عليم خبير﴾ لاثبات أنه مايجري في الواقع إنما هو بعلم الله وليس بحاجة لأن يخبره أحد بما يجري لأنه خبير بالوقائع والأحداث ابتداء لأن علمه تجريديٌ كاملٌ احصائيٌ سننيٌ استقرائيٌ عالم الغيب والشهادة.

﴿يعلم مابين أيديهم وماخلفهم﴾

كلمة (خلف) لها ثلاثة أصول. الأول: ضد قدام أي وراء، الثاني: التغير، الثالث: أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه[1].

ولتحديد المعنى من كلمة خلف لابد من فهم سياق النص والتفريق بين كلمة الخلف التي تأتي بمعنى الوراء مرتبطة بالجهات، وبين كلمة خلف التي تأتي بمعنى الاستخلاف.

قال تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[2]، أي: إني جاعل كائناً يقوم بالسيطرة على الأرض ويخلفون بعضهم بعضاً في ذلك.

وقال: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾[3]، أي: الذين تُرِكوا وراء المقاتلين قائمون على شؤون الأولاد والبيت.

والملاحظ أن معنى كلمة خلف الثالثة هو نفس معنى الأول، مع اختلاف في واقعها. فالأولى: متعلقة بالجهات فقط، نحو قعد زيد خلف عمرو، أي: وراءه، بينما الثالثة: بالإضافة لمعنى الوراء جاء معنى القيام بالأمر أي الاستخلاف، وهو ترك وراءك من يقوم مقامك. قال تعالى:

---

١ - راجع مقاييس اللغة لابن فارس.

٢ - البقرة - ٣٠

٣ - التوبة - ٨٧

﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾[٤]، أي : لمن يأتي وراءك ممن يقوم بمقامَكَ بمقاليد الحكم.

وبعد هذا العرض لمعنى كلمة الخلف، نفهم قوله تعالى : ﴿يعلم مابين أيديهم وماخلفهم﴾[٥].

فسياق النص يدل على أن مابين أيديهم هو جهة الأمام، فقطعاً وماخلفهم تأتي بمعنى الوراء، ويقصد بها الأشياء الغائبة عن الإنسان ولا يمكن أن تأتي بمعنى ماسوف يحدث في المستقبل من أعمال تأتي وراء الأعمال الحالية التي هي بين يدي الإنسان، لأن كلمة خلف هنا متعلقة بالجهات وليس بالاستخلاف فضلاً عن أن الاستخلاف لايكون إلا للعاقل، أما الأعمال فلا تستخلف بعضها بعضاً.

---

٤ - يونس - ٩٢

٥ - البقرة - ٢٥٥

﴿فإنه يعلم السر وأخفى﴾[1]

لقد ذهب المفسرون في تفسير كلمة أخفى في الآية إلى رأيين: الأول: خواطر النفس ووساوسها.

الثاني: الأمور التي لم تخطر على الذهن بعد، وهذه هي أخفى من السر، ولنناقش الرأيين:

١ ـ خواطر النفس: إن تفسير كلمة أخفى بهذا المعنى وخاصة أنها معطوفة على كلمة السر خطأ لغة، فمن المعلوم أن كلمة السر تشمل هذا المعنى، فالسر هو الشيء المخفي سواء كان صغيراً أو كبيراً قصداً أو وهماً أو خاطراً أو وسوسة . . . الخ. كلها تسمى أسرار. وإذا فسرنا كلمة أخفى بذلك أصبح بذلك كلمتان ذات مدلول واحد ـ السر وأخفى ـ وهذا لا يصح لغة من وجهين: الأول: هو أن اختلاف اللفظ يؤدي إلى اختلاف في المعنى. الثاني: أن العطف يقتضي التغاير، فقطعاً كلمة أخفى غير كلمة السر.

٢ ـ الأمور التي لم تخطر على الذهن بعد: وهذا الرأي باطل من وجهين لغة وعقلاً.

أما بطلانه من الناحية اللغوية فلأمرين:

---

١ ـ طه ـ ٧

الأول: أن صدر الآيــة جاءت بفعــل المضــارع ـ يعلم ـ الـذي يفيـد الحدوث للعلم بالشيء بوقت حدوثه.

الثاني: إن ماذهبوا إليه ليس من معاني الخفاء لغة لأن الخفاء يكون لأمر موجـود ولكنـه مخفي، بخـلاف الخواطر التي لم تخطر بالبال فهي ليست موجودة حتى تكون مخفية.

أمـا بطـلانـه من النـاحيـة العقليـة: فهو لأنهم ربطوا العلم بلاشيء، والـلاشيء: ليس هو محل للعلم أو الجهـل لأنـه لاشيء. وخـواطـر الإنسـان المستقبلية هي لاشيء حالياً وعندما تصبح شيئاً يكون ذلك ضمن دائرة العلم الإلهي.

بعد هذا النقاش السريع نأتي لتفسير النص بما ينسجم مع اللغة والواقع.

فكلمـة السـر هي الشيء الـذي يخفيـه الإنسـان عن الآخرين، وكون كلمة أخفى جاءت بسياق التفضيل والعطف على كلمة السر، مما يؤكد على أن هنـاك أمـوراً أخفى من السـر، أي لم تصـل إلى مستـوى الإدراك الإنساني حتى تصبـح من أسـراره، وإنـما هي أمـوراً موجـودة خارج الـوعي الإنساني لم يكتشفها بعد، وبالتالي بقيت ضمن دائرة الخفاء لم تدخل إلى دائرة الأسرار.

فيصبح معنى النص ﴿فإنه يعلم السر وأخفى﴾ هو أن الله يعلم سرائر الناس، كما أنه يعلم الأشياء الكونية والنفسية الموجودة التي لم تدخل بعد ضمن مستوى الإدراك الإنساني، وإنما هي في دائرة الخفاء حالياً وهذا هو أخفى من السر.

﴿ومامنا إلا له مقام معلوم﴾

إن هذه الآية قد يستشهد بها بعض الناس في أن مقام كل إنسان بعينه معلومٌ مسبقاً. وهذا غير صحيح لأن الآية ضمن سياق آيات وهي: ﴿إلا عباد الله المخلصين، فإنكم وماتعبدون، ما أنتم عليه بفاتنين، إلا من هو صال الجحيم، وما منا إلا له مقام معلوم﴾[1].

فالآيات واضحة في الكلام على فريقين من الناس الأول: المخلصين، الثاني: أصحاب الجحيم، ومن الطبيعي أن يكون مآل المخلصين معلوماً، ومقام المكذبين معلوماً، فالعلم هو لمآل كل من الفريقين حسب اختيارهما نحو قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[2]، فليس العلم هو لمقام زيد وعمرو من الناس مسبقاً، وإنما العلم هو علم اجتماعي لمآل الفريقين يوم القيامة. إذ لا وجود إلا للجنة أو النار. والجنة هي مآل المخلصين، والنار هي مآل المكذبين. وهذا معلوم منذ الآن للعباد أنفسهم. فلذا يجب على العباد أن يختاروا مآلهم بملىء إرادتهم، ويمشون في الطريق الذي يؤدي للمآل الذي اختاروه وعلموه مسبقاً من خلال الرسل والأنبياء والكتب السماوية.

---

١ ـ الصافات ـ ١٦٤

٢ ـ الزلزلة ـ ٧ ـ ٨

﴿ويجعلون لله مايكرهون﴾

لقد علمنا الله من خلال كتابه الكريم قاعدة عظيمة ألا وهي : أن كل مافيه كمال وعظمة وتنزيه فالله أولى به، وكل مافيه نقص فالله منزه عنه. فقد قال تعالى :

﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾، إلى قوله : ﴿ويجعلون لله مايكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون﴾[١].

فمن المعلوم من خلال عالم الشهادة أن الإنسان يملك إرادة حرة يفعل بها مايشاء ضمن إمكانياته التي ملكه الله إياها، ومن المعلوم أيضاً أن الله رحيم رؤوف بعباده يحب ويرضى لهم الخير من العمل كما أخبر عن نفسه إذ قال : ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾، وقال : ﴿إن تشكروا يرضه لكم﴾[٢]، وقال : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[٣]، وقال : ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾[٤]، وقال : ﴿رحمتي وسعت كل شيء﴾[٥]. وأخبر أيضاً أنه لايحب ولايرضى لعباده الكفر

---

١ - النحل - ٥٧ - ٦٢

٢ - الزمر - ٧

٣ - البقرة - ١٨٥

٤ - الأنعام - ١٢

٥ - الأعراف - ١٥٦

والفسوق. فقال: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾[6]، وقال: ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾[7]، وقال: ﴿مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾[8].

ومع كل ذلك يقول قائل: أن الله علم مصير الإنسان إلى الجنة أو النار أزلاً ومن ثم خلقهم ليسير كل فريق حسب المعلوم له أزلاً.

وهذا الكلام فيه مغالطات كبيرة جداً ألا وهي:

أولاً: لقد أثبتنا أن وظيفة العلم هي الاستخدام وليس التحديد، ومعرفة مصير الناس في الجنة أو في النار هو تحديد لصور الناس وحالهم وذلك وظيفة الإرادة وليس العلم. ومن الثابت أن الخلق قد تم بتوجه حادث للإرادة، وقبل توجه الإرادة للخلق لم يكن شيء في الإرادة، وإنما كان الله العزيز العليم المريد الحكيم ولم يكن معه غيره مما يدل على بطلان قولهم.

ثانياً: افتراض أن مصير الإنسان الواعي معلوم أزلاً لا بد من أن يكون بالإرادة أولاً، لأن ذلك عمل الإرادة وليس العلم. فالله تبارك وتعالى إذا أراد شيئاً يستخدم علمه، وبالتالي فمصير الإنسان غير موجود بالعلم الأزلي، بل لابد له من إرادة تتوجه نحوه، وهذا التوجه هو قطعاً حادث وإلا لزم تعدد الجهات الأزلية، ووجود التصور الأزلي للخلق بإرادة الله، وهذا باطل كما أثبتنا آنفاً مما يدل على بطلان قولهم.

ثالثاً: افتراض أن مصير الإنسان الواعي محدد بإرادة الله الحادثة قبل خلق الخلق يلزم منه أن الإنسان مسيراً منفذاً لإرادة الخالق ليس له من الأمر شيئاً. لأنه من المعلوم أن إرادة الله للإيجاد لاتحتمل إلا وجهاً واحداً في التطبيق وهي صفة لأفعاله وليست لأفعال العباد ﴿فعال لما يريد﴾. بينما من الثابت أن فعل الإنسان الواعي يحدث بمشيئة الله التي تحتمل وجهين في التطبيق، مما يدل على بطلان قولهم السابق.

---

٦ ـ الزمر ـ ٧

٧ ـ الحجرات ـ ٧

٨ ـ النساء ـ ١٤٧

رابعاً: إن افتراضهم هذه النتيجة أوقعهم في مأزق كبير ألا وهو: أنهم وصفوا الله بما يكرهون هم أن يتصفوا به، وذلك بقولهم: أن الله علم مصير العباد أزلاً، ومع ذلك العلم القطعي خلقهم ليسيروا كل إلى طريقه المعلوم، وبعث لهم الرسل مع علمه أنهم لن يؤمنوا، وتركهم مع ذلك متخبطين في شرور أعمالهم، ويوم القيامة سوف يحاسبهم ويدخلهم إلى النار!!!

وهذا القول مع تناقضه الذي بيناه سابقاً بين صفة العلم والإرادة، وأثبتنا بطلان قولهم. نلاحظ أنهم وقعوا في مهزلة أخرى ماكان يجب أن يقعوا بها ألا وهي: وصف الله بأشياء لا يرضونها لأنفسهم ورضوا أن يتصف بها الله. وسأذكر مثلاً لتقريب الفكرة:

أب عنده ولد يريد أن يسافر للعمل أو لغيره، وعند الأب معلومات قطعية أن الولد إذا سافر سوف يهلك لا محالة لأسباب معينة. فعند الأب ثلاث احتمالات لا رابع لها وهي:

١ ـ يتركه يسافر دون أن يخبره بما ينتظره من هلاك حتمي.

٢ ـ ينصحه بعدم السفر ويبين له السبب ويتركه على حريته.

٣ ـ يمنعه من السفر ويأخذ على يديه حرصاً على سلامته لا يخبره لعدم ثقته بإختياره المناسب.

فإن اختار الوالد الاحتمال الأول أو الثاني. لاعتبره العقلاء مخطيء بحق إبنه، واتهموه بعدم حبه له، وذموه لأن الولد لا يعرف أين مصلحته. وبالتالي فلابد من الوالد الرؤوف الرحيم بإبنه أن يمنعه من السفر بالإكراه، وذلك للحفاظ عليه. وهذا العمل يمدح عليه لمآله إلى الخير.

فهؤلاء الناس الذين رفضوا أن يتصفوا بالاحتمالين وصفوا الله بأحدهما فوقعوا فيما قال الله بهم: ﴿ويجعلون لله مايكرهون﴾.

أما الاحتمال الثالث فهو غير وارد لأن الله لو أخذ على يدي الإنسان ومنعه قهراً لأصبح مسيراً وهذا مخالف لما عليه واقع الإنسان، مما يدل على أن مصير

الإنسان غير محدد مسبقاً، وإنما الأعمال بالخواتيم. وذلك منسجم مع صفات الله المجيدة الذي وسعت رحمته كل شيء، وعم عدله كل مكان. لذلك بعث للعباد الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل، ولئلا يقولن قائل: يارب أنت حددت مصيري مسبقاً، ثم خلقتني، وبعثت لي الرسل مع علمك السابق أني لن أستجيب لهم، ومن ثم تحاسبني وأنا المنفذ لإرادتك وعلمك، فلماذا يارب خلقتني ألتعذبني؟! لماذا يارب لم تتوفني صغيراً؟ لماذا يارب حددت مصيري إلى النار ولم تحدده إلى الجنة.... الخ.

لذلك ولغيره من الحجج قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾[9] فمعرفة أينا أحسن عملاً أمر مرتبط بخلقنا في هذه الدنيا، وخوض الامتحان لمعرفة النتيجة من خلال انتهاء الوقت وذلك بالموت وإنما الأعمال بالخواتيم.

وتكتب أعمالنا مباشرة أثناء حدوثها وتحصى كما أخبر بذلك سبحانه وتعالى: ﴿والله يكتب مايبيتون﴾[10]، ﴿ورسلنا لديهم يكتبون﴾[11]، وهذا من تمام عدل الله ورحمته الذي هو أرحم بعباده من الأم بولدها.

﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾[12].

﴿قل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾[13].

---

٩ - الملك - ٢٠

١٠ - النساء - ٨١

١١ - الزخرف - ٨٠

١٢ - النساء - ١٤٧

١٣ - التوبة - ١٠٥

إحاطة علم الله لاحتمالات الاختيار عند الإنسان

إن السلوك الإنساني محله هو الواقع، فلا سلوك دون واقع، والواقع هو وجود موضوعي خارج الذهن معلوم بالنسبة لله علماً إحصائياً لايغيب عنه شيء أبداً. وكون سلوك الإنسان مرتبط بالوجود الموضوعي المحصي بالنسبة لله فيعني أن السلوك الإنساني المستقبلي لايخرج عن علم الله الإحصائي الكلي، والإنسان موضوع أمام هذه الاحتمالات الكثيرة المعلومة من قبل الله إحصائياً ليحدد هو موقفه، ويختار بملىء إرادته، حتى يتحمل مسؤولية اختياره.

قال تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾[1].

---

١ - الحجر - ٩٢

السنن الكونية والاجتماعية

عندما خلق الله المادة خلقها محكومة بسنن، وهذه السنن هي شيء آخر غير المادة كما قال تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[1]. فالخلق هو للمادة، والأمر هو القوانين التي خلقت بها المادة وتسير بحسبها لا تحيد عنها قيد أنملة، كما قال جل شأنه: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[2] فالأمر الذي هو السنن ليس مخلوقاً، وإنما هو علم الله، ووجدت المادة به، فلذلك قال تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[3]. والأمر كونه معطوف على الخلق فقطعاً هو شيء آخر غير المادة لأن العطف يقتضي التغاير، وماهو إلا السنن والقوانين التي هي حقيقة علم الله.

وقد علَّم الله الإنسان كيف يسيطر على الأشياء وذلك باكتشاف أمر وجودها، أي قانونها، وذلك بقوله تعالى: ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾[4] والسخرة هي الخدمة الإجبارية

---

١ - الأعراف - ٥٤

٢ - الأحزاب - ٦٢

٣ - الأعراف - ٥٤

٤ - النحل - ١٢

المجانية. لاحظ كلمة [مسخرات بأمره] أي مسخرات بسننه فمن استطاع أن يكتشف أمر الله في وجود الشيء أي قانون وجوده واستمراره يتسخر له الشيء حتماً دون مقابل أو مانع.

والتسخير للشيء يقتضي معرفة القانون الذي كان الشيء به في الواقع، وذلك يلزم له السير في الأرض وتتبع مراحل خلق الشيء وتطوره، ومن خلال التتبع والاستقراء نكتشف الأمر الذي وجد به الشيء وتطور من خلاله كما قال جل شأنه: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[٥]، لأن معرفة بدء الخلق في الحقيقة معرفة للقانون الذي وجد به الشيء وبالتالي نستطيع أن نسخره.

فالشيء المخلوق خلق بقدر أي بقانون، سواء كان هذا القدر نتج عنه خيرٌ أو شرٌ فكلاهما بتقدير الخالق المدبر. إذ لاخالق ولا مقدر إلا هو، كما قال تعالى: ﴿خالق كل شيء﴾[٦]، وقال: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[٧]، وقال: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[٨]. والإنسان ماهو إلا خلق من مخلوقات الله، يتقلب ضمن قدر الله، فتارة تراه في قدر الخير، وأخرى في قدر الشر، وكل ذلك إنما يحصل بناء على اختيار الإنسان نفسه لقدره، فالإنسان مختار للقدر؛ والله هو الخالق المقدر.

كما قال الصحابي الجليل عمر بن الخطاب ـ في معرض الرد على أبي عبيدة عندما اعترضه بقوله: أتفر من قدر الله ياعمر؟ ـ: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله وضرب له مثلاً فقال: أرأيت لو كان لك إبل ورعيتها في وادي غير ذي زرع ألا ترعاها بقدر الله؟ فأجابه نعم. فقال: لو رعيتها في وادي ذي عشب

٥ ـ العنكبوت ـ ٢٠

٦ ـ الزمر ـ ٦٢

٧ ـ القمر ـ ٤٩

٨ ـ الأعراف ـ ٥٤

ألا ترعاها بقدر الله؟ فأجابه نعم. قال: كذلك نحن نفر من قدر الله إلى قدر الله.

نعم نفر من قانون الشر إلى قانون الخير، وندفع شر القدر بخيره. وهذه العملية تتطلب منا معرفة القوانين حتى نستطيع أن نستعمل الخير منها ونتجنب الشر.

فالأشياء التي خلقها الله في الواقع نجد حركتها السننية نوعين:

الأول: حركة سننية آلية حتمية كحركة الشمس والقمر. . . . الخ.

الثانية: حركة سننية إرادية كحركة الكائن العاقل المكلف.

والإنسان بكونه مخلوق بسنن، وحركته الواعية بسنن، فهو يؤمن بسنة، ويكفر بسنة، كما أنه ينجح في عمله بقانون، ويفشل بقانون، فكل أعماله سواء كانت خيراً أو شراً، صواباً أو خطأ، إنما هي بقوانين تسير الأشياء وتحصل النتائج بحسبها.

لكن السنن المتعلقة بالإنسان كفرد ومجتمع من الملاحظ أنها تختلف في سيرها عن السنن الكونية، فالسنن الكونية نجدها مستقلة عن بعضها البعض رغم أنها منسجمة مع بعضها لتأدية دور معين، وغير متعارضة مع بعضها مع انتفاء الموانع. فإذا أردنا صنع ماء فما علينا إلا تطبيق القانون بظروفه الشرطية فينتج معنا ماء حتماً.

بخلاف السنن الاجتماعية نجدها متشابكة مع بعضها البعض مع وجود موانع يستحيل إزالتها كلها مع تعارض موجود بالسنن بكونها وجدت . . تحتمل أكثر من وجه، بخلاف السنن الكونية فهي لا تحتمل إلا وجهاً واحداً في التطبيق، والنتيجة حتمية، والسنن الاجتماعية مرتبطة بالإنسان ذو الإرادة الواعية، فقد يمشي إنسان بقانون للوصول لشيء، ويمشي آخر بقانون خلافه، مما يؤدي إلى تعطيل جريان مفعول القانون الأول، وقد يريد فلان تحقيق شيء في المجتمع، فيعمل حسب القوانين لتحقيقه في الواقع، فتعترضه

موانع ـ وما أكثرها ـ تكون حاجزاً بينه وبين هدفه، فيضطر إلى استعمال قوانين أخرى لإزالة الموانع حتى يأخذ القانون الأول مجراه، فتعترضه موانع أخرى، كعدم قابلية الأشخاص المقصودين للفكرة ورفض إزالة المانع، مما يؤدي إلى تعطيل القانون لعدم وجود الظروف المناسبة حتى يأخذ مجراه في الواقع، وذلك بدهي لوجود الإرادة عند الإنسان.

هذه هي السنن الاجتماعية من حيث التطبيق وانزالها على الواقع، فهي على الظن الغالب لتشابك القوانين وتعارضها، ووجود الموانع واحتمالها أكثر من وجه، ووجود الإرادة عند الإنسان. ولاعبرة بالسنن إذا كانت دراستها تجريدية، ووصفها بالحتمية مجردة، فالأصل هو الواقع المعني بالسنن الاجتماعية.

الشاهد من البحث هو أن السنن الكونية معلومة من قبل الخالق قبل الإيجاد، وشيء مفروض على حركة المادة ولا تملك أن تسير إلاّ بحسبها. فهل مصير الإنسان والمجتمع محدد سننياً قبل الإيجاد؟!.

من المعلوم من خلال الواقع المشاهد أن حركة الإنسان لها أكثر من وجه، فليس هو مسير ضمن خط واحد لايملك أن يتجاوزه، والسنن الاجتماعية مرتبطة به، فلها أيضاً أكثر من وجه حين التطبيق كما مرَّ معنا. هكذا خلق الله الإنسان يملك إرادة تحتمل أكثر من وجه حين التطبيق، وجعل السنن الاجتماعية كذلك.

فلذا مصير الإنسان أو المجتمع الإنساني لم يحدد نتائجه مسبقاً قبل الإيجاد، لأن النتيجة يحددها ويختارها الإنسان صاحب الإرادة الواعية.

﴿إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

الخاتمة

إن المفهوم السائد عند المسلمين لعلم الله ترتب عليه استسلام للقدر ولكل مايحصل، بحجة أن ذلك حاصل لامحالة، فترى الفقر في الأمة الإسلامية على الصعيد العلمي والمادي صفة تكاد تكون لازمة لهم، ومستمرة عبر الأجيال بحجة القدر الذي لامناص ولافكاك منه أبداً، وكل ذلك نتيجة سوء فهمهم لقدر الله، وفصلهم بين الدين والعلم، مع أن العلم هو حجر الأساس للدين الإسلامي.

فمعظم المسلمين يظنون أن الموت لا أسباب له سوى انتهاء الأجل الذي فرضه الله قسراً على الخلق فترى لسان المقال والحال يقول:

من لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد

بينما الملاحظ في عالم الشهادة أن عمر الإنسان هو اثنان: عمر افتراضي ينبغي أن يعيشه. وعمر عملي يعيشه بالفعل. فيموت قبل انتهاء عمره الافتراضي، وذلك نتيجة طبيعة حياته المعيشية، وتعرضه للتلوث البيئي

والغـذائي ، والتلوث الاجتـماعي من عنف وظلم يؤدي إلى إزهـاق نفسه قبل أوانها، والقرآن أثبت هذه الحقيقة بكثير من الآيات.

فلذا المـوت مرتبـط بأسبـابـه فمن تعـاطـاهـا أو أصـابته تلك الأسباب حصلت النتيجـة بشكـل حتمي لامفـر منها، وكذلك موضوع الرزق والسعي لتحصيله، وكـذلـك المصـائب والظلم الـذي يقع على المسلمين من داخلهم وخـارجهم. كل ذلـك إنـما هو باختيـار الإنسان لقدره فليعرف الإنسان القدر ليختار عن وعي، ويتحمل المسؤولية المترتبة على اختياره.

فوضـع المسلمـين الـراهن ليس بحاجة إلى شرح أو تعريف فهو واضح لكل ذي عين، وحالهم نعيشه في الحياة اليومية، وطريقة تفكيرهم مشاهدة من خلال السلوك الفردي والاجتماعي، فالشعوب المسلمة هي من أفقر الشعوب رغم وجـودهم على أغنى الثـروات الطبيعية، ويكفي أن تنظر إلى بنكلادش وبـاكستـان وأفغـانستـان والهنـد.. الـخ، لترى مئـات الملايين من المسلمين المكـدسـين فوق بعضهم بعضـاً يعـانون من التلوث البيئي والغذائي والتلوث الاجتـماعي، فهـا هو مرض العنف يجتـاح أفغانستان والبوسنة والهرسك كوباء الطـاعـون يفتـك بالمئـات والألـوف، يخلف أفـراداً عرضـة للجـوع والمـرض والتشريد والقتل لا مأوى لهم إلا العراء يفترشون الأرض ويلتحفون السماء.

بينما المفهوم الجديد للقدر الذي طرحناه سابقاً يصنع إنساناً فعالاً، يختار قدره بنفسه من خلال السنن التي بموجبها تم واستمر الخلق، فيكتشف السنن ويـدفـع شر السنن بخـيرهـا، نفـر من قدر الله إلى قدر الله. فيدفع عنه شبح المـرض بمعـرفـة سنن الصحـة والعافية، ويدفع عنه شبح الجهل بسنن العلم والمعـرفـة، ويـدفـع عنه شبح الموت مااستطاع إليه سبيلاً بسنن الحياة، ويدفع عنه شبح الفقر بسنن الغنى ويدفع عنه شبح الظلم بسنن العدل، ويدفع عنه شبـح الـذل بسنن العـزة، وهكـذا يتقلب ضمن أقـدار الله فيختـار قدر الخير

ويتجنب قدر الشر، وكل ذلك إنما هو بأقدار الله يدفع بعضها بعضاً، فيصبح هذا الإنسان الذي اكتشف أشياء من قدر الله في الوجود خليفة في الأرض يسيطر على الشيء الكثير من مجرى الأحداث، ويحولها إلى مافيه الخير والمصلحة والسلام للإنسانية جمعاء، وبالتالي تختلف صور الحياة عما كانت سابقاً فقد كانت أشبه بنهر جارف فاض ماؤه فأغرق كل ماحوله من البيوت والأراضي، وأغرق الإنسان والأنعام، بينما الصورة الحالية المطلوب وجودها أن يكون الإنسان سيد الموقف فيسيطر على الفيضان بأن يبني له سداً ويجعل له قنواتاً ومجاريَ ليفيض الماء من خلالها، وعوضاً عن إغراق الأراضي والبيوت، قام بزرع الأراضي، وشيد البيوت، وقام بتوليد الطاقة الكهربائية مستغلاً الطاقة المائية، وأنشأ حضارة إنسانية ليعم الخير والصلاح للإنسان. فهذه هي صورة الإنسان المطلوب وجوده الذي كرمه الله بقوله: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾[1]. وهذا هو الإنسان الذي جعله الله خليفة بقوله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[2]، فسخر له الأشياء تحت إمرته بشرط أن يسير في الأرض فينظر كيف بدأ الخلق ويكتشف ذلك ويسخره لمصلحته.

ولكن هذا الإنسان مع مرور الزمن وازدياد علمه بسنن الله وتسخيره للوجود يطغى ويظن نفسه أنه أصبح أشبه بالإله، وهنا يأتي أمر الله ليضع حداً لهذا الطغيان، قال تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أونهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[3].

---

١ - الاسراء - ٧٠

٢ - البقرة - ٣٠

٣ - يونس - ٢٤

فالأمـر مرتبـط بمفهوم الناس عن قدر الله ، فعندما يفصلون السنن عن أمر الله ويعطونها صفة الوجود الذاتي المستمر إلى مالانهاية ، ويظنون بأنفسهم أنهم يسيطـرون على الـوجـود دون وجـود أي جهة أخرى مدبرة لهذا الكون ، يأتي أمر الله لإنهاء هذا الطغيان وتوقيفه .

فلذا يجب دائـماً استحضـار مفهـوم الإيـمان بالخالق المدبر، وأنه هو رب العـالمين ، وأن هذه العلوم كلهـا هي شيء من علم الله الـلامتناهي ، فتصبح العلوم ومعـرفتهـا دافـع للإيـمان والخشية ، كما أخبر الله بكتابه ، إذ قال : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[٤] .

والحمد لله رب العالمين

---

٤ - فاطر - ٢٨

فهـرس المـواضيـع